مقـالات ٢٠٢٣

نشرت في جريدة الأهرام المصرية

أ.د. محمد الخشت

أستاذ الفلسفة ورئيس جامعة االقاهرة

www.elkhosht.com

الفهرس

يناير ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «١» ---------- ١٥ يناير ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٢» ---------- ٢٩ يناير ٢٠٢٣

فبراير ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٣» ---------- ١٢ فبراير ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٤» ---------- ٢٦ فبراير ٢٠٢٣

مارس ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٥» ---------- ١٢ مارس ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٦» ---------- ٢٦ مارس ٢٠٢٣

ابريل ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٧» ---------- ٩ أبريل ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٨» ---------- ٢٣ أبريل ٢٠٢٣

مايو ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «٩» ---------- ٧ مايو ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «١٠» ---------- ٢١ مايو ٢٠٢٣

يونيو ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «١١» ---------- ١١ يونيو ٢٠٢٣

غير المتقاطع بين أفلاطون وسورة الكهف ---------- ٢٥ يونيو ٢٠٢٣

يوليو ٢٠٢٣

الحكم الرشيد كذروة لسورة الكهف ---------- ٩ يوليو ٢٠٢٣

الحكم الرشيد كذروة لسورة الكهف «٢» ---------- ٢٣ يوليو ٢٠٢٣

أغسطس ٢٠٢٣

يأجوج ومأجوج بين الإرهاب والاستعمار ---------- ٦ أغسطس ٢٠٢٣

سبتمبر ٢٠٢٣

لا أبرح حتى أبلغ ---------- ٣ سبتمبر ٢٠٢٣

رجل حكمة وليس بطلا أسطوريا ---------- ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٣

أكتوبر ٢٠٢٣

لا تحدثنى عن الله! .. دعنى أراه فى تصرفاتك ---------- ١٥ أكتوبر ٢٠٢٣

نوفمبر ٢٠٢٣

الحكمة الأرضية ---------- ١٩ نوفمبر ٢٠٢٣

ديسمبر ٢٠٢٣

التراث والعلم اللدنىّ ---------- ٣ ديسمبر ٢٠٢٣

العلم اللدنى والتسويغ العقلى ---------- ١٧ ديسمبر ٢٠٢٣

لسورة الكهف معان أخرى «١»

١٥ يناير ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

من أهم وسائل تكوين خطاب دينى تنموى، فى إطار منظومة ثقافية علمية تنبذ الأسطورة والتقليد الأعمى- العودة للنصوص الدينية الخالصة والمقدسة، وأعنى بها الوحى الكريم، بعد تحريره من أفكار الفرق الدينية المتصارعة، وتحريره من معتقدات التيارات الرجعية التى استعادت التراث التفسيرى بغثه وثمينه، دون تمييز ولا تمحيص؛ حيث تعد تلك التيارات كل بشرى قديم من المقدسات!

لقد استغرقت كثير من التفاسير البشرية القديمة فى إيراد القصص الأسطورية، والحكايات الخرافية، والمرويات الإسرائيلية، والأقوال التاريخية المرسلة، حول قصص سورة الكهف وأحداثها وشخصياتها، وذلك دون تدقيق علمى، ودون تمحيص عقلانى برهاني. وبسبب هذا تشعر بأنك تعيش فى عالم من الأساطير، بعيدا عن الغايات التى استهدفها القرآن الكريم، وهى التفكير المنهجى الدقيق، ورؤية العالم المنضبطة، والعقيدة الإلهية السليمة، والعلم النافع، والعمل الصالح؛ من أجل عمران الأرض.

ولا شك أن تفسيرات القرآن الكريم القديمة تحتوى على جهود مقدرة واجتهادات متعددة فى ضوء علوم وثقافة عصرها، لكن لا شك أيضا أن الكثير منها تفرع فى مسائل متشعبة تغيب القارئ عن مقاصد القرآن الكلية. ولا شك أن هذه نقطة منهجية تحتاج إلى تفصيل وتفريع، لكننا نفضل إرجاءها فى المستقبل إن شاء الله تعالى؛ حتى لا يغيب عنا المقصد من هذا المقال.

وهو المقصد الذى أشرت إليه فى المقال السابق؛ حيث طلبت من القارئ الكريم إعادة قراءة سورة الكهف مرة أخرى، من منظور مختلف، وعلى أساس «فرض علمي»يحتاج للتحقق. فإذا كانت أغلب التفاسير السابقة تسلم بالحطّ من شأن العمل الأرضى لصالح أعمال السماء، فهل يمكن أن نعيد قراءة هذه السورة بدون التسليم المسبق بهذه المسلمة البشرية التفسيرية القديمة؟ وهل يمكن أن ننظر إلى هذه السورة الكريمة فى حدود تفسير القرآن بالقرآن وفهم الكتاب بالكتاب، وذلك دون الأخذ بالنقول والمرويات غير المبرهن عليها علميا ولا تاريخيا ولا عقليا؟ وهل يمكن أن نقرأ هذه السورة فى ضوء مقاصدها العامة دون الاستغراق فى تفصيلات وتشعبات وطرق فرعية تأخذك بعيدا عن الطريق الرئيسى لها؟

وفى ضوء خطاب دينى علمى تنموى يستهدف «العمران» و«الازدهار الصناعى والزراعي» و«الحكم الرشيد»، فهل يمكن أن نتبين فى هذه السورة الكريمة ما يؤكد أن «الأعمال الأرضية النافعة» محل تقدير وتثمين من الوحى الكريم؟ وهل يمكن أن نزعم أن هذه السورة هى فاصل قرآنى أصيل فى تحكيم الدليل العلمى والبرهان العقلى ونبذ الأسطورة والتفكير النقلي؟

إذا ما أعاد القارئ قراءة هذه السورة الكريمة، فسوف يجد أن معظم الأعمال الصالحة فيها هى من قبيل الأعمال القائمة على العلوم الدقيقة والمعارف المنضبطة، سواء كانت علوما ظاهرية أو علوما باطنية دفينة، تم تتويجها بعلوم «ذى القرنين» ذات المنافع الدنيوية الأرضية المباشرة.

ولا أبالغ إذا قلت إن علوم «الرجل الصالح»التى تم ذكرها فى هذه السورة الكريمة ذات منافع أرضية دنيوية مباشرة تصب فى مجال حماية الأموال وتنميتها، ومقاومة الظلم والمظالم بحيل ذكية. كما تصب فى مجال الإصلاح الاجتماعى، فضلا عن تثمين أهمية الكفاح من أجل البحث عن العلوم الدقيقة وطلبها والعمل بها، وأهمية قيم الصبر والمثابرة والعمل.. أرجوك أيها القارئ أعد القراءة مرة أخرى حتى تجد مصداق ما أقوله لك.

تدور هذه السورة على عدة محاور، كلها مرتبطة ببعضها البعض فى منظومة مقاصدية كلية واحدة، وهى السلامة النظرية للكتاب، وضرورة تصحيح منهج التفكير، وتخليص المعتقد من الشرك، وتحرير رؤية العالم من الأسطورة والنظرة الأحادية الضيقة، وتحديد طبيعة العمل الصالح ومنهجه من أجل نفع الناس وعمران الأرض بعيدا عن أعمال الزينة (زينة الحياة الدنيا)، وصولا إلى الغاية القصوى وهى لقاء الرب الواحد الأحد، وهو لقاء غير ممكن إلا لذلك الذى جمع بين العمل النافع وعدم الشرك فى عبادة الرب.

ويمكن هنا أن تلاحظ أن الآية الأخيرة فى السورة المتفردة قدمت العمل بشكل واضح لكن دون تخل عن العقيدة القويمة: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف: ١١٠.

وتعلم أيها القارئ العزيز، أن أغلب ما تستدعيه الذاكرة من آيات الوحى التى تجمع بين الإيمان والعمل، تقوم بربط الإيمان بالعمل، لكنها تقدم الإيمان على العمل، بينما تجد هذه الآية المتفردة التى تختم هذه السورة المتفردة، تقوم بتقديم العمل الصالح على عدم الشرك، وكأنها تريد أن تقول لك إن الإيمان ضرورى للنجاة لكنه غير كافٍ، بل لابد من عمل صالح نافع له مجالات عديدة تم تحديدها فى قصص هذه السورة.

وللحديث بقية إن شاء العلام العليم.

لسورة الكهف معان أخرى «٢»

٢٩ يناير ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

كان لبعض القراء الكرام مجموعة من التساؤلات والأسئلة حول المقال السابق عن سورة الكهف، ونظرا لأن الإجابة عن كل سؤال تفصيلا قد يستغرق مساحات كبيرة لا يسمح به مقال واحد، فسوف أضع إجابة إجمالية عنها، كلها فى منظومة واحدة فى هذا المقال؛ حتى يتم إلقاء مزيد من الضوء على جوانب من هذه السورة الفريدة.

تشكل الخيوط الرئيسة السارية فى سورة الكهف، منظومة واحدة، ومن تلك الخيوط نذكر:

١ - تأكيد طبيعة العلم الدقيق فى مواجهة العلم الزائف، وتصحيح منهج التفكير حتى يقوم على البرهان المحكم: (..لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ..)، (سورة الكهف: ١٥).

٢ - الرحمة محور أصيل، وخط رئيس سار، بجوار الخطوط الأخرى، من أول السورة حتى منتهاها. فالعمل بدون تحقيق مقصد «الرحمة» عمل ناقص نقصا جوهريا.. والرحمة تسبق العمل كشرط وتعقب العمل كنتيجة، والعمل على أهميته القوية لن يدخلك جنة الدنيا أو جنة الآخرة بدون أن يكون مشحونا بالرحمة وقاصدا إليها.: (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)، (سورة الكهف: ٨٢)، (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي..)، (سورة الكهف: ٩٨).

٣ - عبادة الواحد الأحد، وتخليص المعتقد من الشرك والاعوجاج: (..إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)، (سورة الكهف: ١٣- ١٤).

٤ - ضبط رؤية العالم وتحريرها من النظرة الآنية الأحادية الضيقة: (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)، (سورة الكهف: ٣٤- ٣٦).

٥ - استهداف الرفاهية فى الدنيا والآخرة معا، وطلب الرفاهية والغنى فى الدنيا ليس خطيئة طالما كان فى الحدود والمعايير المشروعة: (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ)، (سورة الكهف: ٤٠)، (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ،(سورة الكهف:٨٢).

٦ - تثمين قيمة الأعمال الأرضية من أجل تعمير الأرض: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ).

٧ - تحديد طبيعة العمل الأحسن والأنفع دنيويا وأخرويا فى مواجهة: (الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)، (سورة الكهف: ١٠٤).

٨ - الحيوان له دور مهم فى حياة الإنسان، وينوه القرآن بدوره فى مواضع كثيرة. وفى سورة الكهف خاصة تمت الإشارة إلى حيوان أرضى هو الكلب وحيوان بحرى هو الحوت. ومن الملفت أن الاثنين يشتركان فى بعض الصفات، مثل الذكاء النسبى، والقدرة على التعلم، والرغبة فى التعاون، والقدرة على اللعب. ويتحدث بعض علماء الحيوان عن وجود نوع من الميل للتواصل مع الإنسان عند بعض أنواع الحيتان مثل الكلاب.

ومن الملاحظ أن الكلب يحتل مشهدا مهما فى قصة أولئك الفتية الأطهار الذين آمنوا بربهم، ولم يمنعهم إيمانهم ولم تمنعهم طهارتهم من مصاحبة الكلب.

ويدل هذا المشهد الجميل على موقف القرآن اللطيف من هذا الحيوان الذى يتمتع بالوفاء والولاء والشجاعة وحب الإنسان وتعاونه معه، وذلك على نحو مخالف للمتداول فى التراث الشعبى من تحقير هذا الكائن ومن اعتباره نجسا: (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)، (سورة الكهف: ١٨).. (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ..)، (سورة الكهف: ٢٢).

أما الحوت، فقد جاء فى قصة موسى أثناء بحثه عن العبد الصالح: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا...)، (سورة الكهف: ٦٠- ٦٥).

وهكذا يحتل الحوت أيضا مشهدا مهما، وله دور واضح فى القصة، فقد عرف موسى من خلاله مكان العبدالصالح.

وفى تصورى أن إدماج السورة لهذين الحيوانين فى قصتين مهمتين يدل على الرؤية الإيجابية للحيوان فى القرآن، فالحيوان من خلق الله، والحيوان جزء من المنظومة الكونية، والحيوان يمكن أن يعيش مع الإنسان فى حالة من التعاون. وهذه بديهيات عندى وعند الكثيرين، لكنها ليست كذلك عند بعض التيارات فى الموروث الشعبى التى تتعامل مع الحيوان بقسوة وقهر واستخفاف واستحقار!.

لسورة الكهف معان أخرى «٣»

١٢ فبراير ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

من أهم الخيوط الرئيسة التى تسير فيها سورة الكهف، محور العلم الدقيق، وهو محور سار من أول السورة إلى منتهاها، وهو محور له ارتدادات واضحة فى كل المقاطع والقصص الواردة فيها. وفى كل مقطع أو قصة تجد نوعا مختلفا من أنواع هذا العلم الدقيق.. مثل: العلم البرهانى، والعلم المدقق تاريخيا، والعلم اللدنى، والعلم الطبيعى، والعلم التكنولوجي.

وفى بداية السورة تجد توكيدا للعلم البرهانى الذى يجب أن تقوم عليه العقائد، (..لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ..)، (الكهف: ١٥). والسلطان البين هو البرهان: (..قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، (البقرة :١١١).. (يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ..)، (النساء: ١٧٤). وينتقد القرآن الذين يعتقدون فى عقائد لا برهان عليها، قال تعالى: (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)، (المؤمنون:١١٧).

ومن زاوية ما يمكن أن نقسم طرق الإقناع إلى ثلاثة طرق: البرهانية، والجدلية، والخطابية، وباختصار يمكن إيضاحها على النحو التالي:

أولًا- الطريقة البرهانية: هى استدلال منطقى استنتاجى ضرورى وواضح ومحكم، يتم فيه الانتقال من مقدمات يقينية إلى نتائج يقينية، حيث تلزم النتائج بالضرورة عن المقدمات، مثلما يحدث فى العلوم الرياضية. وهذا ما لا تجده فى العقائد اللامعقولة، سواء عند بعض الأديان الأخرى، أو حتى عند بعض الفرق العقائدية المسلمة؛ حيث تعتمد على المنهج الجدلى أو المنهج الخطابي.

ثانيًا- الطريقة الجدلية: توظف المنهج الجدلى الذى يعتمد على مقدمات ظنية مشهورة منتشرة بين الجماهير بصرف النظر عن مدى صحتها فى الواقع، مثل كثير من الخرافات الشائعة عند الجماهير لكنها تعتبرها حقائق، مثلما كانوا يجزمون قديما بأن الأرض مركز الكون وأنها ليست كروية، ومن ثم يكفرون القائلين بكروية الأرض، وهو ما فعله البغدادى الأشعرى فى كتابه الفرق بين الفرق. وتجد الحجج الجدلية بكثرة فى الخلافات بين الفرق، مثل الأشاعرة والمعتزلة والشيعة. كما تجدها فى كثير من الأديان التى تعتمد على الإيمان النقلى الموروث من الآباء والأجداد. فليس لديهم «برهان بين»يتم التسلط به على خلاف ما يعتقدون. بل ويستخدم علماء الفرق العقائدية طرق الاستدلال المموه، وربما يستخدمون المغالطات أحيان بوعى وأحيانا بدون وعى، فهدفهم هو الانتصار على أدلة الخصوم بأى وسيلة، وليس البرهنة المعتمدة على مقدمات يقينية ولا على استدلال محكم.

ثالثا- الطريقة الخطابية: التى تستخدم المنهج الخطابى الذى يخاطب العواطف، ويوظف اللغة، والبلاغة، والفصاحة، والبيان، والمجاز، والكلمات الرنانة، ويستشهد بالأشعار والقصص والمرويات ظنية الثبوت، ويفتخر بالمجد القديم الزائل؛ لتأجيج مشاعر الجماهير ودفعها للاعتقاد فيما يقول.

ومن أسف فإن أغلب الجماهير تسير وراء ميول القلب والعاطفة، ولا تدرك أن الأمور الخطيرة والمصيرية ينبغى ألا نخاطر فيها بميول القلب؛ لأن القلب هو محصلة للموروث، أى للتربية والعادات والتقاليد وما ألفته النفس. وهذا الموروث قد يكون باطلًا، وهنا الخسارة قد تكون فادحة. والقلب نسبى تمامًا، وإذا سار المرء وفق ميوله القلبية فربما تتعدّد الأديان وتتعدد المعتقدات بتعدد قلوب البشر! ولذا يجب وضع معيار برهانى للتمييز بين العقائد النوعية.. بحيث لا تؤمن إلا بناء على (بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ)، (الكهف: ١٥).. ولذا فإنى أختلف فى الرأى مع المخاطرين فى الاعتقاد بناء على ميول القلب وأحكامه مثل الغزالى وبسكال ووليم جيمس.

ومن جهتى، فإنى لا أنكر بشكل مطلق دور القلب، لكنه يجب أن يأتى لاحقا على البرهان وليس قبله. وفى العقائد البشرية بعامة لابد أولًا من البراهين التى تميز بين الصواب والخطأ منها، ثم يأتى دور «الإرادة» لكى تأخذ القرار، استنادا إلى البرهان.. فدور الإرادة لاحق على البرهان - أو هكذا ينبغى أن يكون - فيمكن للإرادة أن تنقل الاقتناع بالبرهان من دائرة التصديق إلى دائرة الإيمان الفعلي. كما يمكن للإرادة ألا تنتقل من البرهان إلى الإيمان، بدافع المصالح الدنيوية أو عدم الشجاعة أو التعود المميت، مثلما يحدث عند كثير من الكهنة والجماهير الذين يقتنعون بالبرهان، لكنهم يظلون على معتقداتهم القديمة.

فى الإيمان الصائب، يأتى البرهان أولا ثم يمكن للقلب بميوله أن يكمل الخطوة نحو الإيمان الجديد؛ فالإيمان بحاجة إلى دور القلب بوصفه مكملًا.. ودفعة أخيرة، لا بوصفه نقطة انطلاق أولى، ولا بوصفه معيارًا نهائيًا ووحيدًا (فصلنا هذه النقطة فى موسوعة الأديان العالمية).

إن السلطان البين الذى تتحدث عنه سورة الكهف، هو برهان عقلى محكم يسبق الإيمان حتى يأتى هذا الإيمان نفسه كإيمان منضبط ومتسق ومعقول، فلا إيمان مستقيم بدون برهان واضح ومحكم ودقيق. وليس من الصواب مبدأ «آمن ثم تعقل»لأن العقل التالى للإيمان زمنيا سوف يتحول إلى عقل تبريرى يمكنه أن يبرر أى شيء حتى عبادة العجل أو عبادة البقر أو عبادة الأصنام!

ولذا يجب أن يسبق العقل البرهانى عملية الإيمان، وأن يقوم العقل بمهمته باحثا عن الحقيقة فى حدود البرهان قبل أن يشرع فى الإيمان. وهنا يصبح المبدأ المعاكس هو الصواب «تعقل ثم آمن». ولذا تؤكد سورة الكهف العلم الدقيق فى مواجهة العلم الزائف، وتصحح منهج التفكير فى العقائد حتى تقوم على البرهان الواضح، ولا تقبل ما هو زائف على أنه صحيح: (.. لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ)، (الكهف: ١٥).

وللحديث عن العلم فى سورة الكهف بقية إن شاء العلام العليم..

لسورة الكهف معان أخرى «٤»

٢٦ فبراير ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن الحق لا يُعرف بالأغلبية، بل المعيار هو البرهان العقلى أو الرياضى أو التجريبى، المعيار هو التصورات غير المتناقضة ذاتيا، والمتسقة مع المبادئ البديهية للعقل كما حددتها العلوم الرياضية والمنطقية، والمتطابقة مع الواقع الخارجى كما حددته العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية. المعيار هو «السلطان البين».. الدليل الواضح..

ومن روائع سورة الكهف، أنها بينت أن الحق لا يُعرف بالأغلبية، ونظرت إلى العقل المنطقى بوصفه طريق الحصول على البرهان (= السلطان البين).

وأبطلت السورة الكريمة طريقة التقليد، ورفضت اتباع روح القطيع، كما استهجنت اعتبار أقوال ومعتقدات المجتمع حجة على الحق؛ فلا يمكن اعتبار المجتمع مقياسا للحقيقة.. فأغلب المجتمعات تغرد بعيدا عن التفكير العلمى، وتعشش الأساطير المتناقضة فى عقلها الجمعي.

لذلك حذرت سورة الكهف من أخذ العقائد عن طريق التقليد؛ فلا ينبغى أن يقوم الإيمان على مجرد تصديق الشائع فى المجتمع، ولا ينبغى أن يتأسس الإيمان على مجرد التسليم بالموروث عن الآباء والأجداد مهما كانت مكانتهم.

إن المعيار هو الدليل البرهانى والعقل النقدى، وليس المرويات المنقولة عن الآباء والأجداد، وهذا ما أكده القرآن الكريم مرارا وتكرارا عبر سورة الكهف، بل وعبر سوره الكريمة كلها. إن الإيمان بدون برهان واضح وعلم دقيق سابق، سوف يوقع المرء فى اللامعقول: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ»، (الكهف: ٥).

هنا يقف البرهان فى مواجهة الموروث.. هنا يقف العلم الدقيق فى مواجهة المرويات الظنية.. هنا يقف العقل النقدى فى مواجهة التقليد.. هنا يقف المعقول فى مواجهة اللامعقول..

إن هؤلاء الشباب الذين آمنوا بحقيقة الإله الواحد الأحد المنزه عن مشابهة أى شيء، أدركوا أن الحق لا يُعرف بالأغلبية، ورفضوا تقليد اتجاهات المجتمع السائدة، فالأغلبية ليست معيارا للحقيقة:«هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»، (الكهف: ١٥)..

إن القول بتعدد الآلهة كذب عقلي؛ لأنه مستحيل منطقيا: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)، (الأنبياء: ٢٢).. هذا هو المنطق العقلى الواضح فى القول بوحدانية الإله، وقام البرهان العقلى على استحالة نقيضه (=تعدد الآلهة).. وعليه يتحتم رفض النقيض الكاذب حتى لو قالت به الأغلبية.

وهذه الطريقة فى البرهنة التى يستخدمها القرآن الكريم فى سورة الأنبياء يُطلق عليها فى علم المنطق البرهان غير المباشر، والمقصود به كما يقول الكسندرا غيتمانوفا فى كتابه عن المنطق هو: «برهان تؤسس فيه صحة المطلوب عن طريق إثبات كذب نقيض المطلوب antithesis».

فصحة المطلوب هو القول بإله واحد، وإثبات ذلك عن طريق البرهان غير المباشر يكون عن طريق إثبات كذب النقيض وهو « تعدد الآلهة».. (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)، (الأنبياء: ٢٢).. فمن المحال تعدد الآلهة لأنه سوف يحدث نزاع بين إرادات الآلهة، فكل منهم سوف يريد شيئا غير الذى يريده الآخر، وسوف يختلفون فى القرارات وطريقة تدبير شئون الكون. وبالتالى سوف يفسد الكون لوجود تمانع: (... إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)، (المؤمنون:٩١).

ولما كان نظام الكون يتميز بطريقة واحدة، ويظهر التناسق والوحدة والانسجام والتدبير فى تركيبه وقوانينه، فإن النظام المنسجم الموحد يدل على مدبر موحد.. وهذه الطريقة فى الصياغة والاستدلال تعد برهانا مباشرا على التوحيد.

أما البرهان غير المباشر، فيمكن صياغته بطريقة مبسطة على النحو التالي:

أولا- لو كان هناك أكثر من إله لتعددت الأنظمة وحدث صراع فى طريقة الخلق وفى طريقة الإدارة والتدبير، وحاول كل إله التغلب على الإله الآخر، ولن ينتظم عمل الكون، وفسدت السموات والأرض «مقدمة أولى»..

ثانيا- لا يوجد تعدد فى أنظمة الكون ولا يوجد خلل ولا فساد فى طريقة عمله (مقدمة ثانية)..

ثالثا- إذن لا يمكن القول بتعدد الآلهة (نتيجة لزومية).

هكذا تم إثبات كذب نقيض المطلوب. ويطلق على هذا اسم «برهان الخلف»، كما يطلق عليه أيضا اسم «دليل التمانع».

وبلغة بسيطة يمكن أن نستعير من الأمثال الشعبية المثل القائل «المركب التى بها رئيسان تغرق»، وهو مثل مسلم به، ويعبر عن البداهة العقلية، وأثبتته التجارب البشرية. وبهذه البرهنة يكون تم إثبات استحالة القضية المناقضة لقضية الوحدانية وهى «تعدد الآلهة»؛ وعلى هذا تم إثبات صحة المطلوب وهو القول بـ «إله واحد».

وهذا يدل، فيما يدل، على اعتماد القرآن الكريم، لطريق البرهان، سواء البرهان المباشر أو البرهان غير المباشر.. فى مواجهة المعايير الزائفة، مثل معيار الأغلبية، ومعيار التقليد، معيار ما عليه المجتمع... إلخ. وعلى الرغم من وضوح رفض سورة الكهف لهذه المعايير الباطلة، فلا يزال الكثيرون فى مجتمعاتنا يوظفونها فى حياتهم ومواقفهم وطريقة استدلالهم، مع أنهم حريصون على قراءة سورة الكهف كل يوم جمعة!

ومن هنا يتضح أن المشكلة، فى عقول الذين يقرأون بلا تعقل ولا تدبر!

لسورة الكهف معان أخرى «0»

١٢ مارس ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

فى إحدى المرات التى كنت أقرأ فيها سورة الكهف تذكرت قول إميل سوران الفيلسوف الرومانى: «تعيش عمرك وأنت تكتشف كل يوم شيئا جديدا عن نفسك، ثم يأتى ذلك الأحمق الذى يقول: أنا أعرفك جيدًا»!

ومن أسف لا يزال الناس فى عصرنا على الرغم من أنهم يقرأون سورة الكهف كل يوم جمعة - يزعمون أنهم يعرفونك على حقيقتك بنباهتهم من مجرد معرفتهم ببعض الأشياء الظاهرة عنك وميلهم لتصديق الكلام الشائع المتداول، على الرغم من عدم معقوليته ومخالفته للواقع، ويحكمون على الأمور بالظاهر وبالقدرة على «الكلام المنمق»، ليس فى المعتقدات فقط، وإنما أيضا فى الحياة اليومية وفى إدارة المؤسسات!

وقد ابتلانا الله بأقوام سريعى الاستنتاج والتخمين فى أمور قد غابت عنهم فى عقائد الدين، وأمور قد غابت عنهم فى شئون الدنيا والناس والحياة والتاريخ! ظنا منهم أنهم خبراء وبابوات فى شئون الدين والدنيا! واعتقادا منهم أنهم يعرفون الحقائق من مجرد كلمات سمعوها من هنا أو هناك! أو قياسا منهم للحاضر على الماضي! وهؤلاء أيضا يقرأون سورة الكهف كل يوم جمعة!

والأعجب أن بعض المشتغلين بالعلم والبحث العلمى لا يختلفون كثيرا عن العوام فى تصديق كلام الناس والشائعات دون تثبت وتحقق، وهو مثل غيرهم فى الاستنتاج والتخمين!

وقد كثر المفتون فى عصرنا، المفتون فى أمور الدين، والمفتون فى شئون السياسة والاقتصاد، والمفتون فى أحوال الناس الاجتماعية والمهنية، بل والمفتون فى إرشادك إلى الطرق والأماكن على الرغم من أنهم لا يعرفونها بدقة؛ وعندما تسأله عن مكان يجيبك وهو لا يعرف، فتتوه!

هذا النموذج نفسه متكرر فى كل زمان ومكان فى المجتمعات المتخلفة، من أول إرشادك فى الشارع إلى المكان الذى تبحث عنه، وحتى إرشادك فى مجال العقائد الغيبية وخلق السماوات والأرض والحياة بعد الموت، مرورا بالقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى! ولا مانع عندهم أيضا من الخوض فى أعراض الناس بناء على ظنيات!

تقرر سورة الكهف أن العلم الدقيق المنضبط غاية يجدر استهدافها: (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)، (الكهف: ١٢).

ولا مجال للإيمان بالمعتقدات اعتمادا على (..قَالُوا...) (الكهف: ٤)، بدون علم دقيق منهم أو من تراثهم المنقول عن آبائهم: (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ..)، (الكهف: ٥).. وإذا خالفت كلمات الناس وكلمات الآباء الواقع والمعقول برهانيا، تصبح كذبا كبيرا، مهما تداولتها الألسن ومهما آمنت بها الجموع: (..كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ..)، (الكهف: ٥)..

إن المعيار هو الواقع والمعقول برهانيا، فالتصور غير المعقول الذى يتحول إلى كلمات ينطق الناس بها، يصبح كذبا كبيرا لمخالفته الواقع والعقل البرهانى، ويغدو من أكبر الاجتراءات على الله تعالى- القيام بتحويل المعتقد من «تصور موهوم» إلى «كلمة» تُنطق تنتشر بين الناس.

إن الكلمة المنافية للعقل البرهانى ليست أمرا هينا كما يظن الكثيرون. وهذا ما تنبه له الفخر الرازي فقال: «قَوْلُهُ: (تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُسْتَكْرَه جدًّا عِنْدَ العقل، كَأَنَّهُ يَقُولُ: هذا الذى يقولونه لا يَحْكُمُ بِه عَقْلُهُمْ وَفِكْرُهُمُ الْبَتَّةَ لِكَوْنِه فى غاية الفساد وَالْبُطْلَان، فَكَأَنَّهُ شَيْءٌ يَجْرِى به لسانهم عَلَى سَبِيلِ التَّقْلِيد، لِأَنَّهُمْ مَعَ أَنَّهَا قَوْلُهُمْ، عُقُولُهُمْ وَفِكْرُهُمْ تَأْبَاهَا وَتَنْفِرُ عَنْهَا»، (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ٢١/ ٤٢٥).

ومثلما يرفض القرآن الكريم الأخذ بالكلمات الرنانة دون علم دقيق، ويرفض حجية أقوال الآباء، فإنه يرفض أيضا آفة توجد فى كل العصور عند معظم الناس فى حياتهم اليومية، وعند بعض رجال الدين، وهى آفة سرعة الاستنتاج والتسرع فى التخمين: (..رَجْمًا بِالْغَيْبِ..) (الكهف: ٢٢)، سواء فى المعتقدات أو فى الأمور العادية! والغيب ليس فقط هو غيب السماوات والأرض، بل هو أيضا كل ما غاب عنك حتى من أمور الحياة الدنيا.. فلا رجم بالغيب فى أمور العقائد ولا رجم بالغيب فى شئون الناس والحياة.

ومع أنهم يقرأون سورة الكهف كل يوم جمعة، فإنهم لا يزالون يفتون فى كل شئ سواء بالتخمين، أو التسرع فى الاستنتاج، أو استنادا لأقوال شائعة غير متحقق من صدقها، أو استدلالا بمرويات ظنية الثبوت موروثة من الكتب الصفراء أو أساطير الأولين. وليس العيب فقط على الذين يفتون بدون علم يقينى، بل العيب أيضا وفى الأساس على الذين يستفتونهم ويسيرون وراءهم: (..وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أحدا)، (الكهف: ٢٢).

وهم يفعلون ذلك أيضا على الرغم من أنهم يقرأون سورة الكهف كل يوم جمعة! تلك السورة الفريدة التى أكدت عدم الإفتاء والاستفتاء فى الأمور الغائبة التى لم يتحدث فيها الوحى أو الواقع أو العلوم الدقيقة. إن معرفة الحقائق تكون عن طريق البحث العلمى القائم على معطيات يقينية، وليس على الأقوال المرسلة: (..وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أحدا)، (الكهف: ٢٢).

وهناك أمور لا يعلمها إلا الله، ولو كان من المفيد أن تعرفها لأخبرها لنا: (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا)، (الكهف: ٢٦).

ومع ذلك لا تزال طوائف تدخل فى جدل واسع مع بعضها البعض، على الرغم ضحالة معارفها، وعلى الرغم من أنهم لا يملكون معلومات دقيقة، وعلى الرغم من أن الوحى نهى عن الإفراط فى الجدل فى الأمور الغائبة: (..فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا..)، (الكهف: ٢٢).

لسورة الكهف معان أخرى «٦»

٢٦ مارس ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

الحواس والحقيقة:

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ..) (الكهف:١٨)، (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ...) (الكهف: ٨٦).

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائيّ وأبو بكر، عن عاصم، فى (عين حامية) بالألف من غير همزة، أى (حارّة)، وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر. والباقون قرأوها (حَمِئَة)، أى كثيرة الحمأة وهى الطّينة السّوداء.

وفى الواقع لم يكن الفتية أيقاظا، وفى الواقع أن الشمس لا تغرب فى أى (عين) من الأساس، سواء كانت حامية أو كانت كثيرة الطينة السوداء.

هل الحواس تكفى وحدها لمعرفة الحقيقة؟

هل البصر وهو أقوى الحواس- يمكنه معرفة الحقيقة؟

الإجابة الحاسمة تجدها فى الآيات الكريمة المذكورة أعلاه.. الإجابة الحاسمة هي: «لا».

وهذا ما تؤكده خبراتنا الإنسانية وعلومنا الطبيعية والرياضية، وعلى سبيل المثال، أن شهادة الحواس كانت تؤكد أن الأرض ثابتة، وأن الأجرام السماوية هى التى تدور حول الأرض.. وهذه العين تنظر إلى الشمس فتراها تظهر من الشرق، وتتحرك نحو الغرب، ثم تغيب. ومن هنا تجزم العين أن الشمس هى التى تدور حول الأرض!

وذو القرنين وصل إلى موضع فيه نهاية العمران فى زمنه، قد يكون المحيط الأطلسي، وقد يكون مصب أحد الأنهار الذى ينتشر عنده البرك على شكل عيون الماء، وحولها طين أسود هو الحمئة.

وعندما نظر ذو القرنين ببصره إلى الشمس وهى تغرب فى الموضع الذى وصل إليه - سواء كان محيطا أو منبع نهر أو غيرهما- (وجدها) ظاهرة أمام بصره أنها تغرب فى (عين حمئة)، سواء كان المقصود هو حامية أم كثيرة الطين الأسود. ونحن شخصيا عندما نكون على شواطئ المحيطات أو البحر، نجدها لحظة الغروب كأنها تغرب فى المياه! وإذا كنا فى صحراء مفتوحة ممتدة نراها تغرب فى رمال الصحراء، وإذا كان أمامنا جبل نراها تغرب وراء الجبل.

ولذلك قال القرآن الكريم فى تعبير دقيق: (فوجدها...)، أى أن ذا القرنين هو الذى وجدها ببصره، وليس هذا وصفا وحكما مباشرا من القرآن الكريم، بل هو وصف ذى القرنين لها حسبما أدرك بصره.. مما يعنى أن هذا الوصف لغروب الشمس منسوب إلى ذى القرنين من وجهة نظره، وهو أيضا وجهة نظر الذى لم يصله رأى العلم اليقينى أن الشروق والغروب هو نتيجة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، وليس نتيجة حركة الشمس. كما أن العلم اليقينى يؤكد أنها لا تغرب فى عين حمئة. ومن هنا نفهم لماذا نسب القرآن الكريم التصور بأنها تغرب فى (عين حمئة) إلى إدراك ذى القرنين المعتمد على حاسة البصر، ولم ينسب القرآن الكريم هذا الوصف إلى الله تعالى. فالحواس وحدها لا تكفى لمعرفة الحقيقة.

والتأكيد على أن الحواس وحدها لا تكفى فى معرفة الحقيقة، ليس أمرا واردا عرضا فى آخر السورة وفى قصتها الأخيرة عن ذى القرنين، بل سبق التأكيد عليه فى بدايات السورة وفى قصتها الأولى عن الفتية الذين آمنوا بربهم. فقال عنهم أثناء نومهم العميق فى الكهف: (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ...) (الكهف:١٨).

نعم إن الحواس قد تصور لك أمرا، بينما الواقع يسير على نحو آخر. وهذا ما تؤيده الخبرات الإنسانية، مثلا: إذا ركبت قطارا وكان ثابتا، بينما يسير بجواره قطار آخر، فسوف تظن - لو اعتمدت على حاسة البصر وحدها فى اتجاه القطار الآخر - أن قطارك هو «المتحرك».

وعندما تنظر من بعيد إلى مبنى «مربع» فإنه يظهر لك عن بعد «مستديرا»!

وإذا نظرت إلى الشمس والقمر أو النجوم أو الكواكب، فسوف تراها صغيرة، لكن البراهين الفلكية والرياضية التى توصل إليها العقل، تخبرك أنها ضخمة، وقد يصل حجمها إلى أضعاف الأرض، مع أنك تراها ببصرك بحجم كرة القدم التى تلعب بها!

وإذا نظرت بعينك إلى «عصا مستقيمة» فى الماء، فسوف تظهر لعينك «معوجة منكسرة» فى الماء.

وإذا نظرت إلى ظل حائط فسوف تراه ثابتا، لكنك بعد ساعات تدرك أنه زاد أو نقص أو تلاشى، أى أنه متحرك غير ثابت.

هذا ما ندركه بحواسنا عل سبيل الخطأ، وهذا ما دفع الكثيرين من العلماء والفلاسفة لعدم التعويل على الحواس، مثل ديكارت ومن قبله الغزالي، ومن قبل الاثنين وبعدهما كثير من الفلاسفة والعلماء، بل ومن المفسرين الذين درسوا علوم الفلك والهندسة وحكموا عقولهم واعتمدوا على خبرات إنسانية أعم تتجاوز الإدراك المباشر للحواس.

وهذا ما أكدته سورة الكهف، من عدم الاكتفاء بشهادة الحواس، شأن منهجية العلوم الطبيعية والرياضية فى الوصول إلى الطبيعة الدقيقة للواقع الخارجي.

إن الحواس عاجزة ولا تقدم لنا الحقيقة، بل المظهر فقط، والحواس غير متفقة فيما بينها فى الحكم على الأشياء.

هناك دائما شيء أبعد من الحواس.. هناك دائما أمر أبعد من الظاهر.. فلا تحكم على الأشياء بحواسك وحدها، ولا تتسرع بإطلاق الأحكام انطلاقا من الظاهر وحده.

لسورة الكهف معان أخرى «٧»

٩ أبريل ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

ربما يظن البعض أن تسمية سورة الكهف ترجع إلى أن قصة أصحاب الكهف هى أهم قصة فى السورة مقارنة بقصة صاحب الجنتين، وقصة العبدالصالح وموسى، وقصة ذى القرنين مع يأجوج ومأجوج.. وفى تصورى أن تلك القصص كلها على المستوى نفسه من الأهمية، وكلها يمكن أن تفهم فى ضوء رمزية الكهف المتغيرة.

إن رمزية الكهف لا تقف عند قصة أصحاب الكهف وحدها. لكن معنى الكهف ورمزيته تتغير وتختلف من قصة إلى أخرى.. رمزية الفتية أهل الكهف مادية وواضحة ومباشرة، بينما رمزية الكهف فى القصص الأخرى رمزية عقلية يتركها القرآن لك لكى تتدبرها وتستخرجها بنفسك.. فتسمية السورة بهذا الاسم لم تأت عبثا.

هناك كهف الفتية المادى كجزء من الطبيعة، وهناك كهوف أخرى عقلية معنوية تتعلق بكهف العقل المغلق وكهف ضيق الرؤية وأحاديتها.. وتتعلق بكهف العقل الذى يفكر بمنطق الأسطورة ولا يفكر بمنطق البرهان.. وتتعلق بكهف الاكتفاء بظاهر الأشياء فى العالم الخارجي، وتتعلق بكهف الانخداع بحقيقة الدنيا.. هناك كهف عقلية صاحب الجنتين، وهناك كهف موسى الواقف عند حدود الظاهر، وهناك كهف يأجوج ومأجوج الذى يحرك كل أيديولوجيات الاستعمار.

كهف الفتية الذين آمنوا بربهم، هو كهف حماية المؤمنين بالحقيقة.. كهف السكينة والراحة والاطمئنان.. (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)، (الكهف:١٦).. أى يهيئ لكم فيه سعة ومعاشا وخلاصا، فتجدون فيه ما يرفق بكم وما ترتفقون به فى باقى حياتكم.

هذا هو الكهف بالمعنى المادى كجزء من الطبيعة، لكن هناك كهوفا أخرى نجدها سارية فى السورة كلها.. منها: كهف «العقل المغلق» الذى يعيش فيه طوائف من البشر.. إنه كهف العقل المغلق بلا نوافذ: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى، فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)، (الكهف: ٥٧).. ولذلك تجد صاحب العقل رافضا للتجدد والتجديد، وهو لا يملك هذه الإمكانية أصلا، هذه الخاصية غير موجودة فيه، إنه عقل مغلق.. عليه أغطية بعضها فوق بعض، إنه عقل بلا نوافذ، حتى نافذة الأذن لا تعمل لما بها من ثقل وحمل، أو كما يقول عبدالرزاق فى تفسيره: «يَسْمَعُونَهُ بِآذَانِهِمْ، وَلَا يَعُونَ مِنْهُ شَيْئًا كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ الَّتِى تَسْمَعُ الْقَوْلَ، وَلَا تَدْرِى مَا يُقَالُ لَهَا»، (تفسير عبدالرزاق: ٢/ ٥٠).

إنه كهف التوهم.. كهف الانحراف العقلى عن الحقائق.. كهف الأسطورة وغياب منطق البرهان.. كهف الكذب الذى يبدو فيه الحق باطلا.. ويبدو فيه الزيف حقا: (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)، (الكهف: ١٥).

إنه كهف العقل المغلق الغافل عن أصل الوجود ومبدعه، السائر وراء الهوى، الذى يعيش حالة ضياع وتفريط نتيجة انحرافه عن إدراك الحقيقة القصوى والنهائية للوجود: (..وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)، (الكهف: ٢٨)..

إنه كهف العقل المغلق الذى لا يمكن إقناعه؛ إنه عقل مجدول بلا نظام، والحوار معه يتحول إلى جدل بلا نهاية، حيث لا توجد أية أرضية مشتركة، وإذا وجدت فإنه يأخذك بعيدا عنها نحو مساحات الجدل، وهذا هو النوع الذى قالت فيه السورة الفريدة: (..وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)، (الكهف: ٥٤).

وبجوار كهف العقل المغلق، هناك كهف «ظاهر العالم الخارجي».. إنه الكهف الأكبر للعقول. إن كهف العالم الخارجى غير مباشر فى السورة.. لم تسم السورة العالم الخارجى كهفا بطريقة حرفية، لكن تلاحظ من أول السورة إلى آخرها.. أنها تتحدث عن الانخداع بظاهر العالم الخارجي، الانخداع بزينته.. الانخداع بأنه ثابت لا يتغير.. بينما الحقيقة أنه متغير وإلى زوال.. تارة بشكل عاجل.. وتارة بشكل آجل باعتبار النهايات الحتمية.. والعيب ليس فى العالم الخارجي.. إنما العيب فى طريقة إدراكه.. هنا كأن الكهف هو ضيق الأفق وقصور التفكير فى طريقة النظر إلى العالم.. هنا العقل الجامد أحادى النظر يصبح هو الكهف ذا الفتحة الواحدة والذى لا يرى مَن بداخله العالم الخارجى إلا من زاوية واحدة.. زاوية الظاهر.

هناك كهف عقلية صاحب الجنتين، الذى يفكر فى إطار ما يراه «هنا والآن»، ويعتقد أن الزمن مجمد عند هذه اللحظة، وأن الحاضر دائم غير خاضع للتغير: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)، ((الكهف: ٣٥-٣٦). إنه وهم الثبات الغافل عن أن « كل شيء يسيل ولا شيء يبقى» كما قال هيرقليطس، أو كما قال القرآن الكريم: (..كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ)، (الرحمن: ٢٩).

وهناك كهف موسى عندما كان واقفا عند حدود الظاهر: (..قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، (..قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)، (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا).. (الكهف، الآيات:٧١- ٧٤ ٧٧).

وهناك كهف يأجوج ومأجوج الذى يحرك كل أيديولوجيات الاستعمار فى الاستحواذ على مقدرات الأمم الأخرى وإفساد حياتها والتعدى على أرواحها وممتلكاتها ومواردها: (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ)، (الكهف: ٩٤).

إن رمزية الكهف تسير من أول السورة إلى منتهاها، ويتغير معناها وتختلف دلالتها باختلاف الموضع والسياق والمقصد. ويمكنك أن تستخرج كهوفا أخرى.. فقط أخرج وانظر من بعيد، وتدبر.. حتى تتحرر!

لسورة الكهف معان أخرى «٨»

٢٣ أبريل ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لعل كهف أفلاطون هو أشهر كهف فى التاريخ بعد كهف الفتية الذين آمنوا بربهم، الأمر الذى لا يغرينا فقط بالمقارنة بين الكهفين، بل يغرينا أيضا بالمقارنة مع سائر الكهوف المستنبطة من سورة الكهف.

إن رمزية كهف الفتية وأحداثها مختلفة عن رمزية وأحداث كهف أفلاطون.. لكن رمزية سائر كهوف السورة الفريدة قد تطرح بعض المقارنات والمقاربات الجديرة بالتأمل. وقبل هذا قد يكون من المفيد تقديم قراءة لأسطورة كهف أفلاطون واستخلاص بعض دلالاتها ومقاصدها.

إن كهف أفلاطون لا تتجلى فيه حقائق الأشياء، بل تتجلى فيه بعض ظلال تماثيل مقلدة لها وانعكاساتها غير الكاملة على الجدار الداخلى للكهف.. فيظن سجناء الكهف أنها الحقائق نفسها لتعودهم على رؤيتها، مع أنها مجرد ظلال منعكسة لأشياء مقلدة.. حيث افترض أفلاطون أن الناس فى هذا العالم الذى نعيش فيه مسجونون فى كهف تحت الأرض، ومقيدون بالسلاسل منذ الطفولة، وظهرهم فى اتجاه فتحة الكهف التى يطل منها نور الشمس، بينما أعينهم متوجهة إجباريا إلى الجدار الداخلي، وهناك خلفهم داخل الكهف طريق مرتفع.. وراءه نار فى موضع عال داخل الكهف.. ويسير على هذا الطريق أناس حاملون تماثيل لمختلف الأشياء المصنوعة والشبيهة بأشياء العالم الخارجي.. مثل الناس والحيوانات والنباتات وغيرها.. وبعض هؤلاء الحاملين لهذه الأشياء المقلدة يتحدث وحديثه يحدث صدى.. وبعضهم لا يتحدث.. والسجناء المقيدون بالقيود لا يرون إلا ظلال التماثيل المصطنعة وهى تنعكس على الجدار المواجه لهم.. ويظنونها الأشياء الحقيقية.. ولا يسمعون سوى صدى الصوت، فيظنونه آت من الظلال المنعكس أمامهم.. (لمزيد من التفاصيل راجع النص الأصلى فى محاورة الجمهورية، الكتاب السابع، ترجمة د. فؤاد زكريا).

فهؤلاء السجناء لا يعرفون الأشياء الحقيقية بل كل ما يعرفون هو ظلال الأشياء المصطنعة!

ولو تم تحرير واحد من هؤلاء، سوف يجد مصاعب فى التحول من الظلام إلى النور؛ لأنه معتاد على الظلام، لكن إن صبر وجاهد فسوف يكتشف تدريجيا درجات الحقائق عبر رحلة خروجه إلى العالم الحقيقي.. عالم الأشياء الحقيقية.. عالم المعقول.. يقول أفلاطون على لسان سقراط بطل محاورة الجمهورية: «الأمر يحتاج إلى التعوُّد إذا كان عليه أن يرى ما خارج الكهف فى ضوء الشمس، إنه سوف يستطيع فى أول الأمر نتيجة لهذا التعود أن ينظر فى سهولة شديدة إلى الظلال، وسوف يكون فى قدرته بعد ذلك أن يرى صور الناس وبقية الأشياء منعكسة على سطح الماء، إلى أن يستطيع أخيرًا رؤية هذه الأشياء نفسها أى رؤية الموجودات الحقيقية بدلًا من انعكاساتها على سطح الماء، ألا يكون فى قدرته أن يرى من بين هذه الأشياء ما يتجلَّى منها فى قبة السماء، كما يرى السماء نفسها، وأن تكون رؤيته لها بالليل حين يتطلع ببصره إلى نور النجوم والقمر أسهل من رؤيته للشمس وضوئها بالنهار؟ ... أعتقد أنه سوف يتمكن آخر الأمر من النظر إلى الشمس نفسها، لا إلى صورتها المنعكسة على سطح الماء، أو عندما تظهر فحسب، وسوف يستطيع النظر إلى الشمس نفسها كما هى عليه فى ذاتها وفى المكان المحدد لها؛ لكى يتأملها ويتعرف على طبيعتها»، (محاورة الجمهورية، الكتاب السابع).

لكن ماذا سوف يحدث عندما يعود مرة أخرى من العالم الخارجى إلى الكهف؟

يقول أفلاطون: «فإذا عاد إلى الجدال مع المقيَّدين دائما هناك حول الآراء المختلفة عن الظلال، فى الوقت الذى لا تزال فيه عيناه تعشيان من الضوء قبل أن تعودا سيرتهما الأولى ــ الأمر الذى سوف يستغرق منه زمنًا طويلا حتى يتعوَّد عليه ــ ألا تعتقد أنه سوف يُعرِّض نفسه هناك للسخرية، وأنهم سوف يحاولون أن يقنعوه بأنه لم يغادر الكهف إلا ليعود إليه بعينَين مريضتَين، وأن الأمر لا يستحق أبدًا أن يشقَّ الإنسان على نفسه بالصعود إلى هناك؟ وإذا حاول أحد أن يمدَّ يديه ليفكَّ عنهم قيودهم ويصعد بهم إلى أعلى، ألا تعتقد أنهم لو استطاعوا أن يمسكوا به ويقتلوه فسوف يقتلونه حقًّا؟ قال: يقينًا سيفعلون ذلك»، (محاورة الجمهورية، الكتاب السابع).

ويفسر أفلاطون هذا الأمر فيقول: «فالمسكن الشبيه بالكهف صورة لمكان الإقامة الذى تقع عليه أعين من ينظرون حولهم كل يوم، والنار التى تتوهج خلف ظهور ساكنى الكهف ــ أعلى منهم بقليل ــ هى صورة الشمس التى تسطع فى الخارج، وقبة الكهف أو سطحه الذى تتطلع إليه عيون المساجين، تصوِّر قبة السماء المزدانة بالقمر والنجوم. تحت فلك القبة يحيا الناس مقيدين بالأرض، إنهم يحسون أن ما يحيط بهم هو الواقع، وأن ما يرونه هو الحق. لا وجود إلا الوجود الذى يرونه حولهم، ولا حقيقة إلا لما تلمس أيديهم، إن كانت أيديهم تستطيع أن تلمس شيئًا! فى هذا المسكن الشبيه بالكهف يشعرون أنهم يعيشون فى بيوتهم، ويقيمون فى العالم، مطمئنين أن لا بيت لهم سواه ولا عالم غيره»، (محاورة الجمهورية، الكتاب السابع).

إنه بعينه كهف العقل المغلق الفاقد للبصيرة الذى يسيطر على العقل الجمعي..

هذا ملخص لأسطورة الكهف عند أفلاطون بالرجوع إلى النص الأصلى فى الجمهورية.. ويتبقى أمامنا تقديم تأويل لمقاصدها، وإجراء بعض المقارنات والمقاربات، وذلك فى مقال آخر إن شاء الحكيم العليم.

لسورة الكهف معان أخرى «٩»

٧ مايو ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن قليلا من الفلسفة يؤدى إلى الكفر، لكن كثيرا من الفلسفة يؤدى إلى الإيمان.. قول شهير منسوب إلى الفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون. ويثبت كثير من التجارب صحة هذا القول، ومنها تجربتى الشخصية. ولا شك فى أن التوظيف الفلسفى للعقل يرشد الإنسان إلى جانب من الحقيقة، وأن الفلسفات العقلية تلتقى فى مساحات مشتركة مع الإيمان.

لكن لا أحد يملك الحقيقة المطلقة سوى مبدع الوجود: (..لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) (الكهف: ٢٦).. فالله وحده هو الأعلم .. هو الأبصر بكل شيء.. والأسمع لكل شيء.. وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا كائنا من كان.. سواء كان شخصا أو مؤسسة أو هيئة، وعليه فلا يملك أحد الحقيقة المطلقة سواه سبحانه بنص القرآن الكريم.

إن الكهف العقلى عند أفلاطون كهف واحد، بينما الكهف العقلى فى سورة الكهف فى حقيقته ليس كهفا واحدا، وإنما كهوف متنوعة تكشف فساد أنواع عديدة من تفكير البشر أصحاب العقول المغلقة.. إنها كهوف التقليد والنقل والجمود والتمسك بالظاهر ورفض التجديد... إلخ، إنها كهوف يرفع رايتها بعض الكهنة الذين لا يزالون يحتفظون بالتأثير على جموع العوام.

وبطبيعة الحال لا نزعم- وليس لأحد أن يزعم- أن هناك تأثيرا وتأثرا بين سورة الكهف وأسطورة الكهف الأفلاطونية، بل نزعم فقط أن هناك مساحات مشتركة بين العقل الفلسفى والعقل الإيمانى.. وأن توظيف العقل وفق منهجية صارمة يؤدى بك إلى إدراك ما هو أبعد من الظاهر وما هو أبعد من الحواس. والمقاربة مع أفلاطون لا تعنى أننا أفلاطونيون، فنحن نختلف مع كثير من أفكاره، كما نختلف مع آراء كثير من الفلاسفة بعامة، فلا توجد فلسفة تملك الحقيقة المطلقة، مثلما لا يوجد مذهب فقهى أو عقائدى بشرى يملك الحقيقة كاملة.. وهذه سمة كل ما هو بشري. وعلى الرغم من وجود خلافات كبرى، فإن هناك مساحات مشتركة متقاطعة بين جميع الأطراف، يمكن أن يلتقى عندها الجميع.

ومن هذه المساحات المشتركة، أن العقل الواعي- سواء فى القرآن أو فى العلم أو فى الفلسفة- لا يقف عند حدود الظاهر، بل يعتمد على المنهج العلمى الذى يعمل وفق شروط البرهان وقواعد العقل المنهجي.

وإذا عدنا للمقاربات بين سورة الكهف القرآنية وأسطورة الكهف الأفلاطونية، فسوف نجد أفلاطون قد عبر عن مقاصده العقلية موظفا الأسطورة كوسيلة درامية؛ حتى يقرب فكرته العقلية للناس.. بينما عبرت سورة الكهف بواسطة القصص الواقعية المشوقة حتى تقرب مقاصدها العقلية لجميع المتلقين.

تشير سورة الكهف إلى أولئك البشر الذين يعيشون فى العالم الدنيوى معتقدين أن الظاهر وحده هو الحقيقة، وأن المؤقت هو الدائم، بينما هم مغيبون عن إدراك الواقع على حقيقته.. وأيضا كهف أفلاطون هو العالم الدنيوى نفسه الذى يعيش فيه الناس الغارقون فى عالم الظاهر، ولا يستطيعون إدراك الحقائق الكبرى؛ لأنهم مقيدون بالحواس والمعرفة الحسية.. ويظنون أن ما يدركونه هو الحقيقة، بينما هم فى الواقع لا يدركون إلا ظلالها الخارجية. ولا شك فى أن مثل أفلاطون الذى جاء على لسان سقراط قد أظهر لنا مدى انخراط الناس فى طرق الإدراك الزائفة ومدى تمسكهم المتعصب بأفكارهم القديمة. وهذا أيضا ما أظهرته سورة الكهف الفريدة.

ونجد الناس «داخل» كهف أفلاطون مقيدين بسلاسل العادة والتعود والعرف والتقليد وضيق أفق الإدراك، حيث يكشف سقراط قصور إدراكهم وبعدهم عن الحقيقة، بينما نجد أولئك الناس أنفسهم «خارج» كهف الفتية الذين آمنوا بربهم، حيث يعانون من قصور البصر والبصيرة. لكن الفتية أنفسهم الذين آووا إلى الكهف تحرروا من المعرفة الزائفة، وتخلصوا من التصورات الباطلة التى يعيش فيها من يحيون فى العالم الخارجي.. إن كهف الفتية المؤمنين هو كهف الاعتزال عن العالم الخارجى عندما يستحيل تغيير ذلك العالم إلى الأفضل.. إنه كهف تلقى الرحمة من متاعب الحياة الخارجية.. إنه كهف يهيئ الله فيه للذين آمنوا به موضعا للراحة وأسباب الحياة بعيدا عن اضطهاد أهل الباطل: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) (الكهف: ١٦).

ومع أن أولئك الذين يعيشون داخل كهف أفلاطون يتشابهون مع أولئك الذين يعيشون خارج كهف الفتية، فإن الالتقاء هو فى التأكيد على أن كلا من المجموعتين مغيبة عن إدراك الحقيقة، سواء فى أسطورة الكهف الأفلاطونية أو فى سورة الكهف.. ولذلك تجد القرآن الكريم يصفهم فى سورة أخرى: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)، (الأنعام: ١١٦).

إن القرآن الكريم يرفض المعرفة الظنية، والفلسفة العقلية أيضا ترفض المعرفة الظنية، وكلاهما يؤكد أن أغلب الناس دوما بعيدون عن الصواب ويتبعون الظن.

عزيزى القارئ.. فكرة هذا المقال لم تكتمل، وللحديث بقية إن شاء العليم الحكيم.

لسورة الكهف معان أخرى «١٠»

٢١ مايو ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

أحد أهم الدروس المستفادة من سورة الكهف الفريدة، هو ضرورة إعادة النظر فى علاقة وعينا بالعالم المادى الخارجى.. إن الوعى الحقيقى يجب أن يكون أكبر من حدود العالم المادى، كما يجب أن يكون مستقلا عن كل ما هو مباشر وحسى، إذ دوما هناك كما يقول شرودنجر فى كتابه «العقل والمادة» - حقيقة أعمق تتجاوز ما يمكننا ملاحظته بحواسنا، وأن هذه الحقيقة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالوعى.

وتأسيسا على أهمية «الوعى»الذى يتجاوز كل ما هو مباشر ومادى ومحسوس، وإذا ذهبنا بعيدا عن كهف الفتية، ونظرنا إلى الكهوف الأخرى المستنتجة من سورة الكهف بأكملها، ربما يمكن المقاربة بينها وبين كهف أفلاطون -من جهة بعض الدلالات والمقاصد لا كلها- خاصة فيما يتعلق بدلالات الانشغال بكل ما هو ثانوى، والتفكير الخرافى، والجمود عند اللحظة والمكان، والاكتفاء بالظاهر، والغرور، والجدال المميت، والانغلاق والمغالطة.

هنا ربما يمكن القول إنه يمكن إعادة قراءة أسطورة كهف أفلاطون فى ضوء كهوف العقليات المغلقة بتنوعاتها المختلفة التى تحدثت عنها سورة الكهف، تلك الكهوف التى تجدها كما سبق القول فى مقال سابق- فى:

أولًا - كهف «الانشغال بتحديد التواريخ والأماكن والأرقام» لكل ما هو ذو طابع دائم ومتجدد. وهذا الكهف نجى منه أفلاطون؛ حيث إن أسطورة كهف أفلاطون لا تقع أحداثها فى زمن محدد ولا فى بلد معين. وأيضا قصص سورة الكهف لم يحدد القرآن زمن وقوعها، وهذه سمة بالغة الأهمية؛ لأن كل قصة والحكمة منها تصلح لكل الأزمنة.. كما أن القرآن لا يذكر أسماء للبلدان التى وقعت فيها.. حيث لا يهم الزمان ولا يهم المكان.. ما يهم هو المقاصد والحكم والعبر التى تصلح للاستمرار فى كل العصور والأماكن.. إنها ليست سورة للتأريخ والتاريخ، بل هى سورة للحكمة الخالدة.. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه «إطلاقية الزمان والمكان» فى سورة الكهف.. وهى سمة كثير من القصص القرآنى. أما البحث غير المجدى أحيانا عن الأعداد والسنوات فقد رفضه القرآن الحكيم عندما لا يكون لذلك فائدة على مستوى المقاصد والحكم: (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ..» (الكهف٢٢) «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..)، (الكهف: ٢٥-٢٦). والتفسير الأقرب للصواب هو أن القول: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)، من بقية أقوال الذين حاولوا تحديد عدد الفتية وكلبهم، بدليل أن القرآن قال بعد ذلك مباشرة: (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).. ويؤيد ذلك بعض القراءات مثل قراءة عبدالله بن مسعود.. فهذا المعنى هو الأقرب للسياق.

ثانيًا كهف «الأساطير المروية» عن لحظة الخلق التى تمتلئ بها كثير من كتب التواريخ والتفاسير، مثل «البداية والنهاية»فى التاريخ لابن كثير، بل ويمتلئ بها تفسيره ذائع الانتشار، مع أن القرآن الحكيم قال صراحة: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ..)، (الكهف: ٥١). فمن إذن يتبع القرآن الحكيم: نحن أم أنتم أيها المزايدون؟! إنكم تعيشون فى كهف العقل الذى يفكر بمنطق الأسطورة ولا يفكر بمنطق البرهان.

ثالثا - كهف «ديمومة هنا والآن».. إنه كهف عقلية صاحب الجنتين الذى يفكر فى إطار ما يراه «هنا والآن»، ويعتقد أن الزمن مجمد عند هذه اللحظة، وأن المكان ثابت، وأن الحاضر دائم غير خاضع للتغير.

رابعًا - كهف «الظاهر هو كل شيء».. إنه كهف موسى الواقف عند «حدود الظاهر»، والذى لا يستبصر العوامل غير المرئية، ولا يتفكر فى المقاصد من ورائه.

خامسًا - كهف «الغابة».. إنه كهف يأجوج ومأجوج.. الذى يفكر أهله بمنطق الغابة.. إنه كهف غرور القوة والعدوان الذى يحرك كل أيديولوجيات الاستعمار.

سادسًا - كهف «العقل المجادل» الذى يمارى كثيرا ودائما: (..وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)، (الكهف: ٥٤).

سابعًا كهف «العقل المنغلق»الذى لا ينتبه للبراهين والدلائل، ولا يقتنع بأية حقيقة واضحة وبسيطة مهما يكن البرهان حاسما عليها.. إنه عقل لا يفقه أى جديد، ولا يستمع للرأى الآخر مهما كان لديه من أدلة قرآنية وعقلية؛ فيعرض عنها كآيات بينات من القرآن الكريم ومن العقل الصريح،ويتناسى ما قدّمتْ يداهُ من الأخطاء، مثل الانتماءات الحزبية السياسية الفاسدة.. وبعض النماذج الكهنوتية فى عصرنا لا تنسى أو تتناسى فقط تاريخها السياسى غير المشرف، بل ينسى أتباعها ذلك، ويغالطون ويرمون خصومهم بما فيهم هم أنفسهم: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)، (الكهف: ٥٧).

للحديث بقية إن شاء البصير القدير..

لسورة الكهف معان أخرى «١١»

١١ يونيو ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

ربما توجد بعض المقاربات على المستوى الأكثر عمومية بين مقاصد الكتاب السابع المتضمن لأسطورة الكهف عند أفلاطون فى محاورة الجمهورية، ومقاصد سورة الكهف الفريدة، وذلك فى استهداف الخير الأعلى وتحقيقه على الأرض، وفى تطبيق الإنصاف عبر دولة عادلة، وفى كون دقة العلم وسلامة رؤية العالم والحكمة أمورا ضرورية للحكم الرشيد.

وعلى الرغم من وجود تلك المقاربات العمومية فى استهداف الحكم الرشيد كذروة لتطبيق المعرفة الحق، فمما لا شك فيه أنه يوجد تباين كبير فى المضمون بين القوانين التنفيذية فى الجمهورية عند أفلاطون وبين القوانين التنفيذية فى الحكم الرشيد فى القرآن الكريم، وسوف نخصص لهذه التباينات مقالا منفصلا إن شاء العلى الحكيم.. خاصة أن التباين كبير على مستوى الشريعة أو القوانين الحاكمة.

ومع أنه توجد تباينات كثيرة وجوهرية بين النظامين، لكن يمكن المقاربة فى العموميات على مستوى معالم طريق الحكمة ومناراته الرئيسة، مع رفض الزعم بوجود أى تأثير وتأثر بين هذين النظامين المعرفيين. والمقاربة بينهما على مستوى العموميات هى مقاربة لا تاريخية.. إنها فقط مقاربة فى المعالم الكبرى للحكمة، مثل:

- أهمية الحكم الرشيد -كذروة- فى الكتاب السابع فى محاورة الجمهورية، وفى سورة الكهف (قصة ذى القرنين آخر قصص السورة).

- وجود مقاربة فى الأخذ بالأسباب والنظر إلى العلوم والمعارف والتربية بوصفها شروطا ضرورية للحكم الرشيد.

- توجد مقاربة إلى حد ما فى تتابع وتتالى المنارات على طريق الحكمة، ويظهر التتالى المتقارب نسبيا وجزئيا، فى كون البداية هى دقة المعرفة النظرية، لتحقيق سلامة رؤية العالم أو سلامة المعتقد، مرورا بانضباط السلوك المتسق مع سلامة المعتقد، ثم تحقيق الإنصاف عبر إدراك كلى لجميع المتغيرات الظاهرة والباطنة، وصولا إلى الذروة، وهى الدولة الرشيدة.

إن الكتاب السابع فى جمهورية أفلاطون يبدأ بالمعرفة وينتهى بالحكم، وأيضا سورة الكهف الفريدة تبدأ بالتأكيد على اشتراط العلم اليقينى لسلامة المعتقد، وتنتهى فى ذروتها بقصة الحكم الرشيد الذى قدمه نموذج ذى القرنين.

وإذا قمنا بإعادة قراءة الكتاب السابع المتضمن لأسطورة الكهف عند أفلاطون فى محاورة الجمهورية، وإذا رجعنا إلى الشروح التقليدية لها، فسوف نجد أن البعض يظن أن أفلاطون يستهدف من أسطورة الكهف بيان درجات المعرفة فحسب.. لكن الحقيقة أن أفلاطون يوظف نظرية المعرفة من أجل شيء أبعد من ذلك، هو تحقيق الحكم الرشيد، فأسطورة الكهف الأفلاطونية ذات أبعاد سياسية واضحة، كما إنه يوظفها من أجل وضع نظرية فى التربية والتعليم.. وليس أمر التربية والتعليم بمعزل عن أمر السياسة والدولة الرشيدة؛ فالتربية والتعليم هما أساس الدولة، وهما الوسيلة لتحقيق رشدها.

هنا معرفة الحقائق، وتكوين تصورات عقلية سليمة، وتشكيل رؤية منضبطة للعالم، أمور يستهدفها الكتاب السابع من الجمهورية، والوسيلة لتحقيقها تكمن فى نظام للتربية والتعليم العالى، وصولا إلى وضع أركان للحكم الرشيد، وكأن الحكم الرشيد هو المقصود، وصلاح الفرد هو أساس صلاح المجتمع، وتحقيق الإنصاف والسعادة هما المطلب الأسمى.

ويؤيد هذه القراءة لأسطورة الكهف، أن أفلاطون فى الكتاب السابع من جمهوريته، بعد أن فرغ من بيان أسطورة الكهف، أوضح أن «آخر ما يُدرك فى العالم المعقول بعد عناء شديد هو مثال الخير»، ويرى أنه « بدون تأمل هذا المثال لا يستطيع الإنسان أن يسلك بحكمة، لا فى حياته الخاصة ولا فى شئون الدولة»، مما يعنى أن ما يستهدفه أفلاطون هو تطبيق المعرفة بالخير فى الحياة الخاصة الفردية، وفى إدارة شئون الدولة.. وكأن الحكم الرشيد هو الذروة التى يريد أن يصل إليها، فالبداية التربية وتعليم المعارف ودراسة العلوم، والنهاية السياسة وتكوين دولة رشيدة.

ويدل على هذا أيضا قول أفلاطون على لسان سقراط: « حكم الدولة أمر لا يصلح له أولئك الذين لم يتعلموا ولم يعرفوا الحقيقة». والغرض هو «تحقيق السعادة فى المدينة بأسرها». ووسيلة أفلاطون فى ذلك -كما قلنا مرارا- هى الرعاية والتربية والتعليم للكوادر من أجل صالح الدولة.

إذن، فإن الأساس عند أفلاطون لتكوين الدولة الرشيدة هو «الإنسان»، ولا سبيل للتقدم إلا بالتعليم والتربية معا. فالتعليم والتربية هما الأساس المكين للدولة.

وعلى جانب آخر يظهر عند أفلاطون رباط بين الحكمة والألوهية فى قول أفلاطون «إن فضيلة واحدة، وأعنى بها الحكمة، تنتمى إلى ملكة أكثر ألوهية»، إذن الحكمة -بوصفها بصيرة قادرة على النفاذ إلى قلب الأشياء- تنتمى إلى ملكة ذات طابع إلهي.. وربما يستدعى هذا مستقبلا مقارنة -من نوع ما- مع بصيرة وحكمة العبدالصالح المنفتحة على طاقة من العالم الإلهي.

ويرى أفلاطون أن القدرة على النفاذ إلى قلب الأشياء يمكن أن تتحقق للأخيار والأشرار، حيث يقول عن الحكمة إنها: «لا تفقد قدرتها أبدا، وإن كان استخدامها فى الخير والشر متوقفا على الاتجاه الذى نحولها إليه»؛ فالاثنان يملكان القدرة على الرؤية السليمة، لكن الأشرار يسخرونها فى خدمة الشر، بينما الأخيار يوظفونها فى خدمة الخير. وما يفصل بين الطريقين هو التربية منذ الطفولة وتطهيرها من الشوائب حتى يمكن أن يقود الدولة من يجمعون بين الحكمة والخير.. من أجل صالح الدولة ومن أجل صالح الأفراد أيضا.

وللحديث بقية إن شاء القدير العليم

غير المتقاطع بين أفلاطون وسورة الكهف

٢٥ يونيو ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تبين لنا فى مقالات سابقة أن من الدوائر المتقاطعة بين مقاصد سورة الكهف ومقاصد الكتاب السابع فى محاورة الجمهورية، دائرة استهداف الحكم الرشيد كمقصد أعلى، علاوة على تقاطعات أخرى سبق ذكرها. لكن من جهة أخرى، هناك مساحات فى تلك الدوائر لا تتقاطع مع بعضها البعض؛ حيث نجد اختلافات وفى المضمون فى الجوانب التنفيذية للحكم الرشيد بين كتاب الجمهورية وسورة الكهف. ومن تلك المساحات غير المتقاطعة، أن أفلاطون يتصور أن الأسرة التقليدية تشكل عائقًا أمام تحقيق مصالح الدولة، وتؤدى إلى اختلال النظام الاجتماعي. وعليه، يذهب أفلاطون إلى ضرورة إجراء تغييرات جذرية على نظام الأسرة بشكل يحقق أهداف الدولة المثالية من وجهة نظره. وإذا رجعنا مباشرة لكلام أفلاطون نفسه فى كتاب «الجمهورية»، دون مراجع وسيطة، سوف نجد أفلاطون ينص على أن النساء مشاع بين الرجال، يقول: «إن الدولة التى تطمح إلى أن تحكم حكما مثاليا يجب أن تجعل النساء والأطفال مشاعا»، فلا يخص أحدهم نفسه بإحداهُنّ. لكن مشاعية العلاقة عند أفلاطون هى مشاعية تتم فى حالات مقررة ومقيدة بالعلانية وشهادة المجتمع، كما يحرم الاقتران بين الأقارب، حيث يبيح للرجال من يشاؤن من النساء، إلا بناتهم وأمهاتهم وجدّاتهم وحفيداتهم، كذلك يُباح للمرأة كل رجل إلا آباءها وأولادها وسلَفها وخلَفها. وأيضا يرفض العلاقات السرية خارج النظم المقررة. وإذا كان الأبناء لا يعرفون والديهم، ولا يعرف الوالدان أبناءهما، فكيف يتم تشريع المحرمات فى العلاقة الحميمة عند أفلاطون؟ يجيب: «لا يعرفونهم بتاتًا، لكنهم يدعون جميع الأطفال الذين يولدون بين الشهر السابع والعاشر من قرانهم أبناءهم وبناتهم، وهؤلاء أيضًا يدعون الذكور آباءهم والإناث أمهاتهم، وأولاد المواليد أحفاد، ووالدى الوالدين أجداد وجدّات، والمواليد الذين وُلدوا فى دور التوليد المضروب لوالدَيهم يدعون بعضهم بعضًا إخوةً وأخوات. ويُحظَر على الإخوة والأخوات مس بعضهم بعضًا، ولكن القانون يبيحه إذا أصابتهم القُرعة ووافقت كاهنة دلفى على ذلك». أما الأطفال فهم مشاع أيضا، فلا يعرف والد ولده، ولا ولد والده. وحال ولادة الأطفال يتسلّمهم موظّفون مُختصّون بهذا الغرض. فيحمل الموظفون أولاد الوالدين الممتازين إلى المراضع العموميّة، تحت عناية مُرضعات يسكنّ أحياء خاصة بمعزلٍ عن الناس. ويُشرف هؤلاء الموظفون أنفسهم على الأطفال، ويستدعون والداتهم لإرضاعهم حين تفيض ثُديّهنّ، متخذين الاحتياطات اللازمة حتى لا تعرف أى أم طفلها. وإذا كان لبن الوالدات غير كافٍ يأتون بغيرهن لإرضاع الأطفال. ومن التباينات أيضا بين جمهوريةً أفلاطون وسورة الكهف، أن أفلاطون يرفض الملكية الخاصة ويقول بالملكية العامة فقط. وهو ما يسميه أفلاطون الملكية المشاع، يقول: «ولمّا كان مسكنهم وطعامهم مشاعًا، ولا أحد منهم يُخصُّ بملك أو عقار خاص، فيعيش الجنسان معًا...». (انظر: كتاب «الجمهورية»، الترجمة العربية لحنا خباز).

وعلى خلاف أفلاطون، فإن سورة الكهف لا تقول بشيوعية النساء والأطفال، وتؤكد على مفهوم الأسرة بوصفه النموذج الأمثل للعلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة وأبنائهما؛ حيث يظهر فى سورة الكهف مفهوم الأسرة وعدم مشاعية الأبناء فى قوله: (أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا)،(الكهف: ٨٠- ٨١). كما يظهر فى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا...)،(الكهف: ٨٢).

وعلى مستوى نظرية الملكية، نجد بوضوح فى سورة الكهف إقرار الملكية الخاصة والاعتراف أيضا بالملكية العامة، والملكية الخاصة تظهر فى قصة صاحب الجنتين، فالقرآن لا ينكر عليه الملكية الخاصة لكنه ينكر عليه فساد المعتقد بشأنها: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا)،(الكهف: ٣٥- ٣٦). والملكية الخاصة مهما كانت كبيرة أمر مشروع فى سورة الكهف تماما بشرط سلامة المعتقد: (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ...)،(الكهف: ٣٩- ٤٠).

كما تظهر الملكية الخاصة، بل والدفاع عنها وحمايتها من الملوك الغاصبين، فى: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)، (الكهف: ٧٩). وتمتدح السورة أيضا بوضوح تأمين الملكية الخاصة فى قوله: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، (الكهف: ٨٢). أما الملكية العامة فتتمثل فيما تحوزه الدولة من الموارد الطبيعية العامة وما تملكه من ممتلكات أو مشروعات، وأيضا ما يؤول إليها من نسب محدودة من الملكية الخاصة بواسطة الضرائب أو الخراج أو غير ذلك، مقابل تقديم الدولة لخدمات عامة مثل الأمن، وهو ما يمكن فهمه من: (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)، (الكهف: ٩٤). والخرج هو الْخَرَاجُ ويطلق على مَا يَخْرُجُ جزئيا من الأموال الخاصة إلى الدولة، مثل الضرائب وغيرها من المستقطعات القانونية التى تذهب للملكية العامة التى تديرها الدولة لخدمة الشعب.

توجد إذن اختلافات تنفيذية واضحة بين النظامين القرآنى والأفلاطوني، لكن هذا لا ينفى وجود مقاربات دالة كما قلنا فى مقال سابق؛ حيث يبدأ الكتاب السابع فى جمهورية أفلاطون بالحديث عن مراحل المعرفة وينتهى بالحكم الرشيد، وتبدأ سورة الكهف بالتمييز بين المعرفة الوهمية والعلم اليقينى للوصول إلى سلامة المعتقد والرشد الخاص والعام، وتنتهى فى ذروة قصصها بقصة الحكم الرشيد الذى قدمه نموذج ذى القرنين.

الحكم الرشيد كذروة لسورة الكهف

٩ يوليو ٢٠٢٣ ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إذا أعدنا قراءة قصص سورة الكهف ككل، نجد أن البداية فيها كانت بقصة أصحاب الكهف، ثم قصة الرجلين مع الجنتين، وبعدها انعطاف سريع على قصة آدم وإبليس، وبعدها قصة العبد الصالح. أما الذروة التى تتوج قصص هذه السورة، فهى قصة ذى القرنين التى جمعت جميع مقاصد القصص السابقة فى قصة واحدة، كنموذج ملهم للحكم السياسى الرشيد.

حيث تبدأ سورة الكهف بتأكيد ضرورة بناء المعتقد على العلم الدقيق، ثم تطرح السورة قضية سلامة رؤية العالم من خلال قصة الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، وكيف أنهم عندما اختلفوا مع قومهم فى رؤيتهم، وعجزوا عن تغييرهم، قرروا الانعزال ولم يمارسوا الإرهاب ضد مجتمعهم، ولم يقعوا فيما تقع فيه الجماعات الانفصالية المتمردة من حرب تدميرية مسلحة ضد وطنهم. وبعد قصة هؤلاء الفتية، تأتى قصة أخرى هى قصة صاحب الجنتين التى توضح قضية من أهم القضايا، أعنى قضية علاقة المعتقد بالملكية والرفاهية والإنتاج الزراعي، وبعدها تأتى قصة العبد الصالح، وهى قصة الحكمة الفعالة.. قصة تحقيق الإنصاف.. قصة رفض مظالم الملوك الذين يريدون الاستحواذ على ممتلكات الأفراد.. قصة حماية الملكية الخاصة.. قصة تضع فى حسبانها كل المتغيرات ولا تكتفى بالمعرفة الظاهرة المباشرة. ثم القصة الختامية التى تمثل ذروة السورة، وهى قصة ذى القرنين التى جمعت بين مقاصد القصص السابقة وحققتها على الأرض من خلال مفهوم الحكم السياسى الرشيد.

وهكذا نجد سورة الكهف تتدرج من العلم الدقيق وسلامة المعتقد فى أول قصة فيها، مرورا بالقيم الخالدة فى القصص الأخرى، حتى تصل إلى المبادئ الكبرى للدولة الرشيدة فى قصتها الأخيرة، إنها قصة ذى القرنين مع الأقوام الذين حكمهم.. إنها قصة الدولة القائمة على:

التفكير الدينى الصحيح وسلامة الرؤية.

التفكير العلمى وتوظيف أسباب العلم.

التخطيط المدروس.

تحقيق الإنصاف.

إعطاء قيمة مضافة لموارد الطبيعة.

التنمية.

تحقيق الأمن للشعوب.

محاربة الإرهاب والاستعمار الظالم.

إن قصة ذى القرنين تقدم نموذجا لحاكم يطبق مبادئ رشيدة وقواعد عامة فى الحكم، لكنها طبعا لم تتحدث عن تحديد طبيعة وشكل نظام الحكم: هل هو إمبراطورية أم مملكة أم دولة أم خلافة. ولم تحدد هل كان ذو القرنين إمبراطورا أم ملكا أم رئيسا أم خليفة أم فرعونا. والمفهوم من السياق أنه حاكم وقائد عسكري، لكن السورة لم تحدد صفته، حسب أنواع أنظمة الحكم، وكأنها تلمح إلى أن المهم هو تحقيق مبادئ وقيم الحكم الرشيد بصرف النظر عن طبيعة وشكل النظام السياسي.

وهذا درس من الدروس الكبرى لسورة الكهف، فالطبيعة السياسية لنظام الحكم تتغير بتغير الظروف التاريخية والاجتماعية، وحسب سياق كل دولة؛ فما يصلح لشعب قد لا يصلح لشعب آخر فى العصر نفسه، وما يصلح لشعب معين فى عصر تاريخى قد لا يصلح للشعب نفسه فى عصر تاريخى آخر. لكن هناك مبادئ خالدة وقيما مستدامة يجب أن يقوم عليها أى حكم سياسى رشيد فى أى عصر.

وقد أخطأ سيد قطب فى ظلال القرآن، عندما قال إن ذا القرنين: «لا يُذكر لأنه ملك، ولكن يذكر لأعماله الصالحة». وكأن ذكره كملك أمر غير لائق! وفى تصورى أنه يُذكر لأنه حاكم سياسى وقائد عسكرى ينفذ قواعد الحكم الرشيد، ويفكر تفكيرًا علميا، ويأخذ بالأسباب وبالتخطيط المدروس، ويقاوم الإرهاب، ويعطى قيمة مضافة تحقق الأمن للشعوب التى يحكمها. إن الأعمال الصالحة ككل قد يفعلها الحاكم أو غيره من عموم الناس، لكن تنفيذ قواعد الحكم الرشيد خاصة لا يملكها سوى الحاكم. ولذا ذكر القرآن قصة ذى القرنين. ولو فرضنا أنه كان ملكا فإن هذا لا يعيبه، بل إنه يزينه كملك عادل. لكن القرآن تجاوز هذه الصفة، وتحدث عنه كحاكم وقائد عسكرى بشكل عام فهذا هو الباقى بمرور العصور.

وقد قامت سورة الكهف بتحرير أحداث قصة ذى القرنين الحاكم الرشيد من تحديد الزمان الذى عاش فيه، كما حررت الأحداث من تحديد اسم الأماكن التى حكمها، حتى يصبح حدثا كليا يمكن أن يصلح لكل زمان ومكان؛ لأن المقصود هو «العبرة»التى لا تفقد دلالتها فى كل العصور، المقصود هو «ذكر» ما هو كلى ودائم ويصلح كمبادئ عامة.. ولذلك فإن قول سورة الكهف: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)، (الكهف: ٨٣).. لم يأت عبثا؛ فالقرآن الحكيم يتلو منه ذكرا، أى جانبا مهما يشتمل على ما هو باق ودائم، وليست تفصيلات عابرة للتسلية، ولا مرويات قصصية مؤقتة لا دوام لها، ولا أحداثا جزئية لا قيمة كلية لها.

ومع ذلك، فإن كثيرا من كتب التراث تورطت فى التفصيلات والقصص غير الثابتة حول ذى القرنين، وتركت الدائم الذى توجهنا إليه سورة الكهف الفريدة. وإذا طالعت -عزيزى القارئ- تفاسير القرآن البشرية، فسوف تجد كثيرا منها قد غرقت فى المرويات الأسطورية عن ذى القرنين وحاولت تحديد شخصه وزمانه ومكانه. وكأنها تأخذ القرآن الحكيم من سياق الخلود إلى سياق المؤقت المرتبط بزمان ومكان محددين!

الحكم الرشيد كذروة لسورة الكهف «٢»

٢٣ يوليو ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

عندما نقول إن الخطاب الدينى الجديد يحتوى على مفهوم الحكم الرشيد بوصفه الذروة والمقصد لتحقيق الإنصاف والازدهار، فإن ما نقوله ليس أمرا مبتدعا، وإنما هو عودة للوحى الكريم فى نصوصه البينة المحكمة. إن تأسيس خطاب دينى جديد لا يعنى إنشاء دين جديد، بل يعنى السعى نحو إصلاح أحوال الناس تحت مظلة الدولة الوطنية بوصفها آخر مراحل تطور الأنظمة السياسية، وهى الشكل المعاصر الذائع فى أغلب دول العالم.

وسبق أن كتبنا عنها فصلا كاملا فى كتاب «نحو تأسيس عصر دينى جديد تحت عنوان (الحاكم الناجح بين قوانين القرآن وسنن التاريخ)، ودار هذا الفصل حول ثلاثة محاور، هي: أسس التمكين السياسى، والتنمية الشاملة والمستدامة، ومكافحة التطرف والإرهاب. وكان هذا الفصل هو الفصل الأخير فى ذلك الكتاب، وكأن نموذج الحكم السياسى الرشيد هو ذروة أمل الخطاب الدينى الجديد، مثلما كانت تجربة ذى القرنين هى ذروة التجارب الإنسانية الملهمة فى آخر سورة الكهف.

وهذا ما وجدنا شيئا من قبيله أيضا فى الكتاب السابع لأفلاطون، حيث بدأ بالمعرفة وانتهى إلى رسم معالم الحكم المثالى للجمهورية الأفلاطونية. لكن أفلاطون حدد طبيعة نظام الحكم، وغفل عن أن طبيعة الأنظمة السياسية هى التغير والتطور، ولم يدرك نسبية الأنظمة السياسية، كما لم يتبين أنه لا يوجد نظام سياسى واحد يصلح لكل العصور.

أما القرآن الكريم، فإنه يميز بين ما هو دائم وما هو متغير، والدائم هو القيم الرشيدة التى تحكم الأنظمة السياسية مهما اختلفت أشكالها، والمتغير هو شكل النظام السياسى وطبيعته. وأيضا نجد من بين تلك المتغيرات، كثيرا من الوسائل والأدوات التى تختلف باختلاف العصور واختلاف المجتمعات وطبيعة العلاقات الدولية. علاوة على تغير متطلبات الأمن القومى من عصر إلى عصر، وأيضا اختلاف التحديات التى تواجه الدولة سواء أيديولوجية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية أو أمنية. أضف إلى كل ذلك، أن حماية المقدرات الشخصية والعامة، تحتم انتهاج سياسات متباينة حسب طبيعة العصر.

لكن تظل هناك فى كل الأحوال، قيم مستدامة لا تقوم أى دولة ناجحة إلا بها، وقد سبق أن أشرنا إليها فى المقال السابق. ولعل من أهمها فى كل العصور: قيام الدولة على تحقيق الأمن، وتحقيق الإنصاف، والتفكير العلمى والقدرة على تنفيذه. وهى القيم الظاهرة بوضوح فى قصة ذى القرنين.

أما مهمة تحقيق الأمن للشعوب ومحاربة الإرهاب وقوى الاستعمار، فهى مهمة المهام، وهى شرط الشروط؛ لأنه بلا عيش آمن فلا مجال لتحقيق أى شيء آخر من متطلبات الحياة، حيث تكون الفوضى ويكون الضياع للشعب. وهذا ما أظهرته سورة الكهف فى قصتها الأخيرة: (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي..)، (الكهف: ٩٤- ٩٨).

وأما تحقيق الإنصاف كمقصد أعلى للدولة، فيتجلى في: (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)، (الكهف: ٨٧- ٨٨).

وقل مثل ذلك فى التفكير العلمى وتحصيل قوانينه وأسبابه من جانب، والقدرة على تنفيذ أسبابه أو قوانينه من جانب آخر. وقد عبرت سورة الكهف بشكل بارز عن الجانب الأول فى قولها: (..وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)، (الكهف:٨٤). وفى الوقت نفسه أكدت الجانب الثانى وهو القدرة على التنفيذ؛ حيث إن هناك مَنْ يجيدون التفكير العلمى ولديهم أسباب العلم لكنهم لا يستطيعون التنفيذ، فالقدرة على التنفيذ مهارة رفيعة من نوع مختلف، وهنا تم التأكيد على قدرة الحاكم الرشيد فى سورة الكهف: (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)، (الكهف: ٨٥).

وقد حدد الفخر الرازى معنى (السبب) فى (مفاتيح الغيب)، بثلاثة أمور:

١- العلم

٢-القدرة

٣- الآلة (أو التكنولوجيا بلغة عصرنا).

إذن نحن أمام تأكيد أهمية العلم، وأهمية القدرة على التنفيذ، وأهمية الوسيلة أو الآلة أو التكنولوجيا. وكما سبق أن ذكرنا فى كتابنا «نحو تأسيس عصر دينى جديد»، فإن هذه الأسباب كانت أسباب تحقيق الأمن والتمكين والتنمية فى الماضى السحيق، ولا تزال حتى اليوم هى نفسها ذات الأسباب لأى حكم رشيد ناجح.

إن الدولة القائمة على تحقيق الأمن، وضمان الإنصاف لشعبها، والسير على نهج التفكير العلمى والقدرة على تنفيذه على الأرض، هى دولة سورة الكهف، وهى النموذج المجسد للانتماء والولاء والملاذ، فى مقابل الفوضى والضياع ومهددات الوجود.

يأجوج ومأجوج بين الإرهاب والاستعمار

٦ أغسطس ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

قضية الإرهاب قضية قديمة، وهى قضية مستمرة فى كل العصور. تتوقف حينا، تتراجع حينا آخر، لكنها دوما تعود فى كل عصر؛ فحيل الشر لا تنتهي. وقل مثل ذلك فى الاستعمار.. إنه منطق الغابة الذى لا يكف عن الاستمرار فى كل زمن وكل تاريخ. إنه منطق واحد لكنه يتخذ أشكالا مختلفة ومتنوعة، ويغير باستمرار من أقنعته طلبا للتخفى والخداع.

وما الفرق بين الإرهاب والاستعمار سوى الفرق بين عنف «اللا-دولة»ضد الدولة، وعنف «الدولة»تجاه الدول الأخرى. الإرهاب عمل لا أخلاقى تمارسه جماعات ليس لها كيان الدولة، والاستعمار عمل لا أخلاقى تمارسه بعض الدول ضد دول أخرى.

ونموذج يأجوج ومأجوج هو نموذج يجمع بين إرهاب «اللا-دولة» و«إرهاب الدولة»، فهما شعبان أو قبيلتان لهما بعض سمات الدولة، لكنهما يمارسان الإرهاب بمنطق الجماعات الإرهابية القائمة على الكر والفر. إن نموذج يأجوج ومأجوج لا يعتمد على الاستعمار المنظم، لكنه يقوم على الإرهاب الاستعمارى القائم على منطق «اضرب واخطف واجري».. منطق صراع القبائل على الثروات. وسواء كان قوم يأجوج ومأجوج دولة منظمة، أو جماعات إرهابية منظمة، فالنتيجة واحدة، وهى ممارسة العنف اللامشروع والاستيلاء على موارد شعوب ودول أخرى، وتهديد مقدراتها، وإلحاق الضرر بها، ووضعها فى حالة عدم أمان بشكل مستمر. وهذا نموذج متكرر من حيث نتيجته فى كل العصور. ولذا وجب إيقاف هذا النموذج ووجبت إدانته، ولزم تقديم الحلول لمواجهته. وهذا ما فعله ذو القرنين الحاكم النموذج فى كل العصور الذى يوفر الأمن والاستقرار ويحافظ على كيان الدولة.

ومن هنا نفهم منطق سورة الكهف فى تقديم هذا النموذج كنموذج له طابع الديمومة. ومن هنا نفهم لماذا «حررت»سورة الكهف هذا النموذج من قيود الزمان والمكان، ولم تحدد العصر الذى ظهر فيه هذا النموذج، كما لم تحدد اسم المكان أو الأماكن التى ظهر فيها. وهذا «التحرير»الزمانى والمكانى والشخصى للحدث، يعنى أن سورة الكهف تتحدث فيما هو دائم ومستمر وليس فيما هو متعين وشخصى وتاريخي. فالهدف هو النموذج، والغاية هى البحث عن سنن التاريخ؛ حتى يتعلم الناس فى كل العصور.

وهذا ما لم يفهمه الرواة والقصاص والمفسرون الذين حاولوا أن يحددوا شخصية واسم وزمن يأجوج ومأجوج. ولم يتنبهوا إلى أن هذا يحول القصص القرآنى ذا الطابع الكلى إلى قصص تاريخى جزئى مقيد بالزمان والمكان، ويخرجه من سياق المطلق والدائم والمستمر. وقد ذكر الرواة عن يأجوج ومأجوج كثيرا من التفصيلات والأساطير غير الثابتة تاريخيا، ومن أسف تورط بعض المفسرين والمؤرخين فيها دون أى دليل، وانساقوا وراء الروايات الإسرائيلية دون تثبت، ودون تبصر لمقاصد وطبيعة القرآن الكريم. بل أمعنوا فى ذكر أمور أسطورية وخزعبلات تنبؤية فى مسائل عقائدية؛ مع أن العقائد لا تؤخذ إلا ببرهان ثابت يقينا.

ومن عجائب الخيالات والأساطير، ما ذكره النّوويّ من أنّ يأجوج ومأجوج خلقوا من «منيّ»خرج من آدم فاختلط بالتّراب فخلقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حوّاء! ويذكر الثعالبى أنهم من آكلة لحوم البشر دون أى دليل تاريخي.

وبلغ ببعضهم البعد عن المقاصد القرآنية الكبرى أنهم اختلفوا فى مساحة عرض السد الذى بناه ذو القرنين وطوله على أقوال! والبعض الآخر حاولوا وصفه بأنه كالبرد المحبّر طريقة سوداء وطريقة حمراء. وتستمر الإسرائيليات اللامعقولة مع كعب الأحبار، والتى يوردها كثير من المفسرين، فيذكر أنّهم قبل خروجهم يأتون السد فيلحسونه حتّى لا يبقى منه إلّا القليل، فيقولون غدا نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتّى لا يبقى منه إلا القليل. ثم يصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون غدا نفتحه، ويلهمون أن يقولوا إن شاء اللّه، فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه! قال بعض العلماء: ولعلّ أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كان كثيرا ما كان يجالسه ويحدّثه، فحدّث به أبو هريرة، فتوهّم بعض الرّواة عنه أنّه مرفوع إلى الرسول فرفعه. (تفسير ابن كثير، ط العلمية (٥/ ٣٣٠)، وتفسير الطبرى ٩/ ٨٥، ٨٦).

ومن الظنيات غير الثابتة، ما ذكره الطبرى فى تفسيره، أنهم يقطنون خلف جبال أرمينيا وأذربيجان وأنهم مجاورون للأتراك وأنهم سوف يخرجون ضدهم فى مستقبل الزمان. وهناك من يروون أنهم سيشربون كل مياه تقابلهم ومنها دجلة والفرات، وعندما يقتل يأجوج ومأجوج سكان الأرض سيوجهون سهامهم نحو السماء، لكن اللّه سيرسل عليهم ديدانا فى أنوفهم ورقابهم أو آذانهم، فتقتلهم جميعا حتى آخر رجل فى ليلة واحدة، فتملأ رائحة نتن جثثهم كل الأرض. كما أن هناك من يزعم أن اللّه سوف يرسل عليهم جحافل من الطيور تقتنصهم وتلقى بهم فى البحر. كما أن من الرواة من يمعن فى الخيال فيقول إن يأجوج ومأجوج على أنواع ثلاثة: نوع طوال القامة جدا حتى إن طول الواحد منهم يبلغ طول الشجرة العالية، ونوع يبلغ عرض الواحد منهم مقدار طوله، ونوع تغطى آذانهم أبدانهم. (دائرة المعارف الإسلامية). ووصلت الخلافات إلى حد الاختلاف فى طريقة كتابة اسم يأجوج ومأجوج وتعريفهما، فتارة «ماجوج»عبارة عن رجل وليس شعبا ولا قبيلة ولا أرضا. وتارة أخرى «جوج»شخص حاكم، وماجوج هى أرضه، ثم استقر التعريف أن يأجوج ومأجوج (أو جوج وماجوج)، جماعتان وليسا شخصا وأرضه. وفى تصوري، أن سورة الكهف الفريدة لم تلتفت إلى كل هذا مما لا يثبت ولا يفيد، واكتفت بذكر النموذج الكلى لإدانة الإرهاب والاستعمار، وكيفية مواجهتهما، لتحقيق المطالب العليا، وأهمها تحقيق الأمن والاستقرار للشعوب.

لا أبرح حتى أبلغ

٣ سبتمبر ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

(لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ).. أي: لا أزال مستمرا حتى أصل. إنه مقطع رائع فى سورة الكهف الفريدة.. إنه من الأقوال التى تقدم نموذجا كليا للحكمة وتقدم قانونا من القوانين التى تعمل وفقا لها فلسفة النجاح والوصول إلى الهدف.. إنه أحد الضوابط الملهمة التى تحكم تفكير كل المصلحين والأبطال والعلماء والأنبياء والفلاسفة الكبار.

إنه مقطع خالد قاله موسى النبى عندما كان يبحث عن رجل عالم يحمل علما مختلفا عما يمتلكه موسى من معارف، فقد كان يبحث عن العبد الصالح صاحب الحكمة والعلم اللدني. وقد كان هذا يستلزم سفرا طويلا محفوفا بالمتاعب. ويبدو أنه واجه مع الفتى الذى كان يصاحبه متاعب وإحباطات كبيرة، وهنا ظهر إصراره على الوصول إلى هدفه، فلا تراجع عن الوصول إلى مصدر جديد للحكمة والعلوم والمعارف، ولا تراجع عن الوصول إلى الهدف، ولا استسلام أمام التحديات..

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَبًا. فَلَمّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۞ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصّخْرَةِ فَإِنّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلّا الشّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا ۞ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنّا نَبْغِ فَارْتَدّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلّمْنَاهُ مِنْ لَدُنّا عِلْمًا) ﴿الكهف:٦٠ - ٦٥﴾.

واختلف بعض المفسرين حول تحديد شخص موسى المذكور هنا دون أى مبرر، فبعضهم زعم أن موسى صاحب العبد الصالح ليس موسى صاحب بنى إسرائيل، مع أن القرآن لا يتحدث فى سوره كلها إلا عن موسى نبى بنى إسرائيل، وعندما ذكر اسم موسى فى سورة الكهف لم يشر إلى أى شى قد يدل على أنه شخص آخر يحمل الاسم نفسه. إذن فهو موسى النبي. أما فتاه فهو يوشع بن نون.

إن موسى يملك علما نبويا كبيرا، ومع ذلك فعلمه غير شامل ولا كاف حسبما نفهم من القصة الواردة فى سورة الكهف الفريدة.

وعلى طريقتنا فى فهم القرآن الكريم فى إطار النموذج الكلى الباقى والمستمر، والتحرر من قيود المكان والزمان وتفصيلات الرواة غير المجدية فى فهم المقاصد الكلية؛ فلن نقف عند تفريعات وخلافات المفسرين وقصصهم المتضاربة التى استقوها من الإسرائيليات الأسطورية. بل نقف عند النموذج الكلى الذى يمكن التعلم من حكمته فى كل العصور.

لقد كان موسى شغوفا بالعلم، وبالتوسع والازدياد فيه. وتذكر كتب التفسير قصصا غير ثابتة، تضفى أجواء أسطورية غير واردة فى القرآن الكريم ولا السنة النبوية الثابتة بيقين. إن موسى نبي، ثم صار حاكما لقومه. ولم يكتف بذلك؛ فطموحه بلا حدود، وشغفه لا ينتهي. صاحب هذا الشغف وذلك الطموح إرادة وإصرار على تحصيل علوم ومهارات وحكمة جديدة ومتجددة. وعندما علم أَنّ عَبْدًا صالحا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ ما ليس عند موسى، بحث عنه، وعلم أنه موجود بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، فقرر الرحيل إليه للتعلم منه، إنه نبى كبير ومع ذلك يسعى لمزيد من العلم الموجود عند الآخرين.

وهذه من سمات الشخصيات المؤثرة التى لا تكف أبدا عن التعلم، ولا تكف عن بذل أقصى الجهد للوصول إلى الهدف الذى تطمح إليه، وتواجه العقبات والتحديات لكنها لا تبرح حتى تتغلب عليها، فهى تستبطن المعنى الخالد الذى ذكره أحمد شوقى بعد ذلك: «وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً».

إن الأمانى الخيالية تنتاب كثيرا من الناس، لكن الذين يحولون الأمانى إلى واقع قليلون، وهذه القلة بها نخبة تكون أمانيها كبرى وبجهدهم يحولونها إلى واقع مؤثر فى حياة البشر وفى التاريخ.. إنهم يمتلكون الإرادة والعزم والإصرار والتصميم.. إنهم يفهمون فلسفة الحياة وقوانينها الخالدة عن النجاح والوصول إلى الهدف.. ومن أهم هذه القوانين أن تحقيق الغايات والمطالب لا يأتى بدون عزم وتخطيط ومثابرة وإصرار.. النجاح لا يأتى بشكل تلقائي، ولا بضربة حظ.. لا يأتى من تلقاء نفسه أبدا، وإنما عليك أن تذهب إليه وتأخذه «غلاباً»، تأخذه بالاجتهاد والكد المستمر، والتحدى فى مواجهة العقبات، والثبات أمام الصعاب.

وهذه المعانى لخصتها عبارة سورة الكهف فى براعة وفى أقل الكلمات: (لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ).إنه سوف يواصل السير والمسير حتى ولو كلفه ذلك مواصلة الجهد عشرات السنين. قال الإمام الشافعي: «ومن طلب العلى بغير كد.. أضاع العمر فى طلب المحال»، وقال خليل مطران: «اعزم وكد فإن مضيت فلا تقف.. واصبر وثابر فالنجاح محققُ». والخلاصة وضع يده عليها سوفوكليس الشاعر والكاتب المسرحى اليونانى صديق سقراط، وأفلاطون، وهيرودوت.. عندما قال: «ساعد نفسك يساعدك الله».

إذن لا تراجع ولا استسلام عن الوصول إلى الهدف وتحقيق الغاية.. إذن فليكن شعارنا فى الحياة: (لا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ).

رجل حكمة وليس بطلا أسطوريا

الأحد ٢٤ سبتمبر بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لقد صورت الحكايات والقصص التراثية «العبد الصالح»الذى سعى موسى للتعلم منه والمذكور فى سورة الكهف، على أنه رجل الخوارق والمعجزات.. والذى يبطل قوانين الطبيعة ويأتى بالعجب والعجاب!

وفى الواقع أن العبد الصالح ليس هو تلك الشخصية الأسطورية التى يحكى عنها التراث وتحكى عنها المرويات، ولا يزال يحكى عنها العوام فى بلدان كثيرة عند القبور والمقامات العديدة للخضر فى لبنان وسوريا والعراق وفارس والهند وغيرها.

إذا نظرت إلى النص القرآنى الكريم وحده، فسوف تجده يتحدث عن رجل آتاه الله تعالى الرحمة وعلمه علما حكيما رشيدا.. (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) (الكهف: ٦٥- ٦٦).

بينما هو خارج النص القرآنى فى التراث- سواء كان تراثنا أو تراث غيرنا- رجل الخوارق والبطل الأسطوري! ونسى الجميع أن البطل الأسطورى لا يصلح أن يكون قدوة لنا، فلسنا نملك قدرات أسطورية ولا خارقة. والقدوة التى تصلح أن تكون مقصدا لنا هى الإنسان الذى مثلنا وبقدراتنا نفسها، لكنه اجتهد فامتلك الحكمة، وهذب نفسه فامتلك الرحمة، وأدرك حقيقة الحياة فحاز القدرة على العطاء بلا حدود.. هذا قانون الإله الذى سطره القرآن الحكيم: (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) (المدثر: ٣٧)..

فالمواهب التى يمنحها الله تعالى ليست ضربة حظ ولا قدر يعمل بلا قانون.. (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت: ٦٩). والنجوم لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال المشقة.. وكما يقول سقراط الحكيم: «من صح فكره أتاه الإلهام، ومن دام اجتهاده أتاه التوفيق».

لقد خلط كثير من المفسرين بين النص القرآنى اليقينى الثبوت من ناحية وبين النصوص ظنية الثبوت والنصوص الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات من ناحية أخرى، بل إن بعضهم اعتمد على الحكايات الشعبية المتداولة عن الخضر! ومن أسف اعتمد بعض المفسرين على الروايات المستقاة من التراث اليهودى التى حكاها وهب بن منبه وغيره من ذوى الأصول اليهودية، ولم يقرأوا النص القرآنى الحكيم فى حدوده وفى سياقه الخاص، بل قرأوه فى سياق المرويات الإسرائيلية! راجع كدليل على هذا تفاسير: ابن كثير، والقشيري، والبغوي، والسيوطي...إلخ.

إن القرآن الكريم لم يسم العبد الصالح باسم أى شخصية من تلك التى ذكرها المفسرون. ولو كان هناك داع إلى معرفة اسمه وذكره، لكان قد ذكره. فليس المراد التعريف الشخصى بالاسم؛ لأن المقصود هو النموذج الذى يمكن أن يتكرر فى كل العصور. ومن أسف، أن الذى تكرر هو نموذج رجل الخوارق والأسرار النورانية وليس نموذج رجل الرحمة والحكمة والإنصاف، فكثر فى تواريخنا الدراويش ومدعو الاطلاع على الأسرار الإلهية الذين يغيبون وعى الناس الاجتماعى والسياسي، بينما غاب غالبا رجال الحكمة والإصلاح ونشر الرحمة العملية. ومن أسف انتشر الوعاظ الداعون قولا إلى الرحمة، وغاب الحكماء الممارسون لها على الأرض بين الناس.

وإذا فسرنا القرآن بالقرآن فى حدود النص القرآني، فسوف نجد العبد الصالح رجل رحمة وحكمة وتنفيذ للإنصاف، وليس رجل معجزات، ولم يسمه القرآن الكريم باسم الخضر ولا غيره من الأسماء التى ذكرها المفسرون. القرآن وصفه فقط بكونه (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا). وذكر ثلاثة مواقف تدل على الرحمة والحكمة، وليس من بين هذه المواقف ما يدل على وجود خرق لقوانين الطبيعة ولا أى تغيير لظواهرها.. اقرأ معي:

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (الكهف: ٧٩- ٨٢).

المسألة كلها التى يؤكدها القرآن الحكيم أن الرجل الحكيم خالف طريقة الناس فى فهم المشاكل الإنسانية والاجتماعية والسياسية، خالف ما اعتادوا عليه وما ألفوه، بل خالف شريعة موسى وطريقته فى التفكير. لكنه لم يأت حسب النص القرآني- بأى معجزات خارقة.

القرآن يقدمه كنموذج إنسانى خالد فى الرحمة، فهى الأساس، وكنموذج فى الحكمة العملية التى لا تحكم على الأمور من ظواهرها.. الحكمة العملية التى لا تصدر حكما إلا بعد معلومات كاملة عن الموضوع.. الحكمة العملية التى تقوم على حسن تقدير الموقف وإصدار الحكم المنصف المستند فى المقام الأول إلى الرحمة والعطاء بلا حدود دون أجر دنيوي.. الحكمة العملية التى تطبق روح القانون وليس حروف القانون.. الحكمة العملية التى تقوم على تحقيق المقاصد العليا فى الرحمة والإنصاف والتصرف على أساس ارتكاب أخف الضررين لمنع الضرر الأكبر... إلى غير ذلك من المقاصد الإنسانية الكبرى.

وللحديث بقية..

لا تحدثنى عن الله! .. دعنى أراه فى تصرفاتك

الأحد ١٥ أكتوبر ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن تحقيق رحمة الله فى الأرض لها وسائل عديدة، نعرف بعضها، ولا نعرف أخرى. نعرف جانبا من وسائل الله التى تتجلى فى الحياة والطبيعة أمامنا، لكن الله تعالى له أيضا وسائل غير مرئية تعمل بقوة و لا تزال خافية عنا. ومن الوسائل التى نعرفها، أن رحمة الله قد تتحقق بواسطة بعض البشر الذين قد لا يتحدثون عن الله كثيرا، لكنهم يحققون إرادته فى تصرفاتهم.

وهنا أقتبس قصة رائعة من الأدب الروسى تذكر أن طفلا عمره عشر سنوات كان يرتجف من البرد، يقف حافى القدمين أمام واجهة مخزن لبيع الأحذية، ولا يتحرك، يرنو الى الأحذية الدافئة، اقتربت منه سيدة وسألته: ما الذى يثير اهتمامك وأنت تنظر الى هذه الواجهة البلورية، وبماذا تفكر؟ أجاب الطفل: أدعو الله، أن يعطينى زوجاً من هذه الأحذية. أخذت السيدة بيد الطفل ودخلت المخزن، وطلبت من البائعة أن تعطيها ستة أزواج من الجوارب، ورجتها أن تحضر مياها ساخنة ومنشفة. البائعة أحضرت كل ما طلبت منها السيدة، نزعت السيدة قفازيها وقامت بغسل أرجل الطفل وتنشيفها، هنا كانت البائعة قد أحضرت أزواج الجوارب الست، ألبسته السيدة إحداها، وأعطته الباقي، واشترت له الحذاء الذى أراده، ومسحت على رأسه، وقالت له: بدون شك، تشعر أنك الآن أحسن؟ أدارت السيدة ظهرها لتذهب، عندها الطفل شدها من يدها ورمقها بعين دامعة وسألها: أأنت زوجة الرب؟

وهنا تطل علينا تلك الحكمة الرائعة: «لا تحدثنى عن الله، دعنى أراه فى تصرفاتك».

إن الرحمة مطلب أخلاقي؛ حيث يتعيَّن على الفرد أن يبذل قصارى جهده للتخفيف من ألم الآخرين ومعاناتهم. وهذا ما نجده فى سورة الكهف، فى سياسات وتصرفات الحاكم الرشيد ذى القرنين الذى يعى أهمية رسالة الرحمة الشاملة كرسالة من أهم رسائل الدولة: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي..) (سورة الكهف: ٩٨).

كما نجدها متجلية فى تصرفات العبد الصالح الذى آتاه الله الرحمة ثم العلم، فالرحمة مقدمة فى العطاء الإلهى على العلم، وكأنه يؤكد أن العلم لا قيمة له دون أن تسبقه الرحمة: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) (الكهف: ٦٥. إن العلم هو النعمة الكبرى، وهى ملكة يحصل عليها الأخيار والأشرار، لكن الأخيار يوظفون العلم من أجل تحقيق الرحمة، بينما الأشرار يوظفونه من أجل الشر.

ولذا فكل أعمال العبد الصالح تهدف إلى التحرك لوضع نهاية للألم أو المعاناة الموجودة بالفعل، بقدر الإمكان، وبالقدر الذى لا يضر بمبدأ العدالة ولا يجور على حقوق آخرين. وكان العبد الصالح على وعى كامل بهذا الهدف؛فيحبط عمل الملك القاسى الطاغى الذى لا يعرف الرحمة، ويساعد المساكين الذين يعملون فى البحر على الاحتفاظ بسفينتهم رحمة بهم. وهذا هو يقضى على الابن الطالح- بقضاء جماعي- لأنه ابن منزوع من قلبه الرحمة ويرهق أبويه بتصرفاته ويطغى عليهما: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) (الكهف:٨٠). أما الابن المأمول فهو الابن الصالح الرحيم: (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) (الكهف: ٨١). ويحافظ على كنز الغلامين رحمة بهما وتقديرا لأبيهما الصالح، ومن المؤكد أن الرحمة جزء من صلاحه، والرحمة لا جزاء لها إلا الرحمة: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (الكهف: ٨٢).

ولا يؤتى الله رحمته لذوى العقول المنغلقة، بل يؤتيها لذوى العقول المفتوحة. وإذا كنت لا ترحم فلا تستحق الرحمة، فارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء، الرحمة حركة تفاعلية دياليكتيكية بين الأرض والسماء، أعد معى قراءة هذه السورة الكريمة متعقبا هذه المرة مواضع الرحمة، وسوف تجد من بين هذه المواضع أنها مطلب أول لأولئك الفتية من ربهم: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)، (سورة الكهف: ١٠). كما تجد أنها أمل لهم يسعون إليه: .. فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)، (سورة الكهف: ١٦). وتؤكد السورة أيضا أن الله غفور رحيم: (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا)، (سورة الكهف: ٥٨).

إن الرحمة مقصد قرآنى رفيع، وركن ركين يجب أن يرتكن إليه أى حكم رشيد كما أكد القرآن الكريم.. والرحمة ليست شعارا ولا موعظة، بل ممارسة على أرض الواقع. وإذا كان الله تعالى هو الرحمن الرحيم، واختص من أسمائه هذين الاسمين فى أول آية من آيات القرآن الكريم: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فإنه يعيد تأكيدهما فى الآية الثالثة فى ذات السورة قبل آية المحاكمة والحساب.

والمسلم يقرأ هذه الآيات يوميا فى صلواته وفى غيرها، لكن يظل السؤال قائما:

هل نحقق هذه الآيات فى تصرفاتنا؟

الحكمة الأرضية

الأحد ١٩ نوفمبر ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

نشأت في حضارتنا، وأيضا في معظم الحضارات تيارات تزعم امتلاك علم إلهي خاص من لدن الله، دون برهان ولا دليل. وقد رأينا في عصرنا من يظهر على بعض شاشات التواصل الاجتماعي، متحدثا باسم الله في أمور لا معقولة. وعندما سأله سائل: من أين لك بهذه الأقوال؟ رد قائلا: إنها أسرار ونورانيات!

وإذا بحثت في أصل ما يقوله هذا أو غيره، فسوف تجده في الزعم أنه علم «لدني» (أي علم من لدن الله) مثل علم العبد الصالح!

إن المشكلة في أغلب تلك التيارات تكمن في التوسع في فهم هذا «العلم اللدني»دون فهم دقيق لمعناه، وكأنه علم يخرج عن حدود المعقول. وإن شاء العليم الحكيم سوف نخصص مجموعة مقالات لفهم طبيعة العلم اللدني؛ فقد سألني كثير من القراء عنه.

وكما أسلفنا في مقال سابق، إذا فهمنا العبد الصالح في حدود النص القرآني وتفسير الكتاب بالكتاب، دون زيادة أو نقص، فسوف نجد أن العبد الصالح رجل حاز عقله قبسا من نور ، وليس رجل سحر وليس رجل معجزات، وليس رجل خوارق تصدم العقل، وليس رجل خرافات تجاوز عالم المعقول وعالم الواقع.

إنه حكيم صالح وقاض متنور لديه معلومات كاملة عن الموضوع، يصدر الحكم عن بصر وتبصر بالوقائع، ثم ينفذ الحكم في ذلك العصر القديم الذي غابت فيه السلطة التنفيذية. وليس هو مثل بعض القضاة الذين لا يقرأون أوراق القضية ولا يحيطون بوقائعها ويتسرعون في إصدار الأحكام، تارة إهمالا، وتارة جريا وراء الهوى، وتارة لأسباب أخرى. وهو أيضا ليس مثل بعض القضاة الذين يأخذون بحرف القانون القاصر ويتبعون مبدأ العدالة العمياء! بل إنه ينظر في روح القانون لكي يحقق المقاصد العليا له في الرحمة والإنصاف، وكما يقول شكسبير: «الرحمة جوهر القانون، ولا يستخدم القانون بقسوة إلا الطغاة».

إنه ليس موسى الباحث عن العدالة الحرفية التي تأخذ بظاهر الوقائع وظاهر الشريعة، بل هو الرجل الصالح الحكيم الباحث عن الإنصاف، والإنصاف عنده فوق العدالة.

أرجوك أيها القارئ الكريم.. قم بإعادة قراءة قصته في سورة الكهف، ماذا تجد؟

تجد له ثلاثة مواقف لم يستطع موسى فهمها بعقله المتمسك بالظواهر. وقد أفهمه العبد الصالح الحكمة من ورائها. وهي حكمة من عالم الأنوار يفهمها العقل ويستوعبها في حدود عالم المعقول، أي أنها لا تجاوز العقل، أي أنها ليست سرا يفوق حدود الفهم العقلي.

والدليل أنه فسر لموسى لاحقا ما فعله في حدود العقل: (.. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) (سورة الكهف: ٧٨- ٨٢).

فأفعاله لها أسباب عقلية ومعقولة، وعندما ذكرها لموسى فهمها وأقرها ولم يعترض عليها.. إن أفعاله كلها تهدف إلى إنفاذ ما رآه أنه «إرادة الله»في إحباط الظلم والمظالم ومنع التعدي على الممتلكات الخاصة، والانحياز للمساكين إذا كانوا أصحاب حقوق، والحفاظ على الثروات حتى تصل إلى أصحابها ومستحقيها. كما تهدف أفعاله الى الإصلاح الاجتماعي، وفي القلب منه بر الوالدين ونبذ إرهاقهما طغيانا وكفرا، فسلامة التكوين الأسري هو أساس سلامة المجتمع، والأسرة هي لبنة المجتمع وركنه الركين. علاوة على تأكيد أفعال العبد الصالح لقيم الكرم والعطاء بلا مقابل.

إن حكمته ليست حكمة غيبية تفوق عالم العقل، بل إنه صاحب حكمة أرضية تعالج أمورًا دنيوية. وحكمته تُعمل نفوذها في مواقف الحياة وحل مشاكلها ابتداء من مساعدة المساكين وحماية سفينتهم من اغتصاب ملك يعتدي على ممتلكات الناس، ومرورا بحل مشكلة اجتماعية لوالدين يعانيان من ابن عاق، وانتهاء بمساعدة يتيمين على الاحتفاظ بميراثهما من أبيهما الصالح.

عزيزي القارئ.. جرب أن تعيد قراءة هذه الآيات بـ»فرض تفسيري جديد»بدلا من الفرض القديم الذي في ذهنك، الفرض القديم الذي كنت تفترض فيه أنه عالم بالغيب، والفرض الجديد أنه رجل يمتلك عقلا حكيما ومعلومات كافية عن الموضوع.. ماذا تجد؟

تجد أن العبد الصالح رجل يجيد تقدير الموقف بناء على معرفة بمختلف أبعاده، رجل يجيد اتخاذ القرار.. ويجيد تنفيذ ذلك القرار في تلك المناطق التي مر بها والتي لا توجد بها سلطة قضائية ولا سلطة تنفيذية.

رجل لا ينظر للظاهر وحده ولا للجوانب المباشرة فقط، رجل يتعمق في إدراك الواقع وينفذ إلى مختلف جوانبه، رجل يعمل من أجل الإنصاف، يعمل من أجل المستقبل، لا ينتظر جزاء من أحد سوى الله تعالى، ليست لديه هلوسات ولا نورانيات مدعاة ولا أسرارا من عالم الأحلام! بل لديه نور العقل وأنوار البصيرة والحدْس، لديه معرفة معمقة بالواقع ودراسة لاحتمالات المستقبل. ولذا فإن مواقفه كلها يمكن فهمها في حدود العقل والحكمة. والله يؤتي الحكمة من يشاء.

التراث والعلم اللدنىّ

الأحد ٣ ديسمبر ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن ثقافتنا بحاجة لإعادة بناء كثير من المفاهيم حتى يمكن تحريرها من التفكير الأسطوري، والكهوف العقلية، والخروج بها من عالم اللامعقول إلى عالم المعقول، ومن عوالم الأوهام إلى عوالم الوقائع.

ومن تلك المفاهيم التى بحاجة لإعادة بناء، مفهوم «العلم اللدني». إن التيارات المؤمنة بالخرافات تفهم «العلم اللدني» بتوسع وبدون ضوابط وبدون مؤشرات يقينية وبلا شواهد واقعية، حيث استغل البعض قصة العبد الصالح اعتقادا منهم أنها معبرة عن عالم اللامعقول، وزعموا أن ما لديهم من أحلام وأوهام وتهيؤات وخرافات ــ علوم لدنية! مما فتح طاقة متجددة للأساطير ومخالفة العلوم الدقيقة، ومخالفة ما ثبت من الدين بالضرورة، ومخالفة الثوابت العقلية المحكمة.

وقبل أن نحلل هذا المفهوم تحليلا نقديا فى حدود تفسير القرآن بالقرآن، نوضح للقارئ فى البداية، المفهوم المباشر لمعنى «العلم اللدني».. إنه ــ بعبارة بسيطة ــ علم من لدن الله، أى علم من عند الله: (وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا)، والتى جاءت فى سياق التعريف بالعبد الصالح فى سورة الكهف: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا) (الكهف: ٦٥).

وأود أن أبسط للقارئ الكريم معانى «العلم اللدني» طبقا لاستخداماته التقليدية فى التراث، وهى فى مجملها وأغلبها ترى أنه: علم الإخبار بالغيوب ويأتى من عند الله عن طريق الإلهام (تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٣١٠/٢). ويفيد هذا أن تلك العلوم تأتى من عند الله من غير واسطة، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات «العلوم اللدنية» (تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، ٤٨٢/٢١).

إن الوحى هو تصريح من الله بالأمر الغيبى كما يقول الغزالي، والإلهام هو تعريضه (أى بالتلميح)؛ والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علماً نبوياً، والذى يحصل عن الإلهام يسمى علماً لدنيا. والعلم اللدني: «هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين الباري، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف» (الرسالة اللدنية للغزالي).

ويرى الصوفية أن العلم اللدنى هو الذى تعلّمه العبد من الله من غير واسطة ملك أو نبي، عن طريق المشافهة والمشاهدة، وقيل هو معرفة ذات الله تعالى وصفاته علما يقينيا من مشاهدة وذوق ببصائر القلوب، كذا فى مجمع السلوك. كما يرى الصوفية أن «القطب» هو الذى يكون قلبه على قلب محمد عليه الصلاة والسلام، وهو وارث العلم اللّدنى من النبى بين الناس (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ١٢٣١/٢).

وفى التراث، يتم التوصل إلى العلوم بطريقين: الطريق الأول بدون كسب وطلب، أى بدون المذاكرة والتعلم والتفكر. والطريق الثانى بواسطة الكسب، أى بواسطة الاستنتاج والاستدلال والتعقل والتأمل والتفكر، أى بالطلب والاجتهاد.

ووسيلة الطريق الأول هى الرياضات الروحية والمجاهدات الأخلاقية؛ حيث تشرق الأنوار الإلهية من عالم الغيب فى جوهر العقل، وتحصل المعارف والعلوم من غير واسطة سعى وطلب فى التفكر والتأمل. وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية فى التراث التفسيرى (مفاتيح الغيب، ٢١/ ٢٨٣).

إذن يتم التوصل إلى العلم اللدنى فى التراث عن طريق (الرياضات الروحية والمجاهدات الأخلاقية)، أى عن طريق (العبادة وتنقية القلب والتقوى) أو ما يسميه الصوفية (الذوق والسلوك). ولا يأتى هذا العلم اللدنى حسب استخداماته التقليدية ــ عن طريق الاكتساب، أى لا يأتى عن طريق التعليم والتعلم والتحصيل من معلم. وهذا ما يؤكده الغزالى فى (إحياء علوم الدين): إن التقوى مفتاح الهداية والكشف، وذلك علم من غير تعلم. وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذى يحفظ من كتاب، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم اللدنى الرباني، مع أن كل علم من لدنه، ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنيا، بل اللدنى الذى ينفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من خارج (إحياء علوم الدين، ٣ / ٢٤).

انظر إنه يقول: «العالم الذى يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم الرباني».

ولا أدرى كيف يقول أبو يزيد البسطامى والغزالى هذا الكلام؟! إذا كان النبى الخاتم نفسه لا يتمتع بميزة الأخذ عن ربه فى أى وقت يشاء، وقد انقطع عنه الوحى فى أوقات كثيرة! إن كلام البسطامى والغزالى بلا شك ــ كلام غير صحيح؛ فلا أحد يأخذ عن الله طوال الوقت بلا انقطاع، والدليل هو وقائع التجربة النبوية نفسها.

هذا الكلام وغيره عن طبيعة العلم اللدني، فتح الأبواب واسعة أمام ادعاءات كثير من الأشخاص الذين يزعمون أن لديهم «علما لدنيا» يحصلون عليه طوال الوقت باستمرار، دون دليل من وقائع. وكثير من الذين لديهم تضخم فى الذات ادعوا عصمة آرائهم استنادا لهذا التوسع فى تحديد مفهوم العلم اللدني، وظنوا أنهم لا ينطقون طوال الوقت إلا بإلهام مستمر، مع أن الإلهام لا يأتى إلا فى لحظات نادرة ومواقف محددة، والوحى الكريم لا يأتى كذلك فى أى وقت يشاء فيه النبى عليه الصلاة والسلام، بل يأتى وينقطع.. فكيف يزعمون أن الإلهام مستمر لا ينقطع؟!

وللحديث بقية إن شاء العليم الحكيم...

العلم اللدنى والتسويغ العقلى

الأحد ١٧ ديسمبر ٢٠٢٣ بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن العلم اللدنى ينطوى على «قبس إلهي»لا شك فى ذلك، مثله مثل الوحى والإلهام والحكمة. إننا نؤمن بذلك بحكم الإيمان بالوحى الكريم، وبحكم الوقائع الحادثة سواء فى تاريخ الدين.. أو فى تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية.. أو فى تواريخ الحكماء الملهمين.

لكن الثقافة المسيطرة فى حياتنا تظن، بل تعتقد، أن كل تفسير عقلانى يعد إنكارا للعقائد. وهذا خطأ كبير انحرفت إليه الثقافة السائدة؛ خاصة أنها تصورت أن بعض الظواهر الدينية فوق العقل، وحولت كل معقول إلى خرافة، وكل منطقى إلى أسطورة!

ونظرا لأنها عقول جامدة ضيقة الأفق وغير قادرة على الاستيعاب العقلي، فإنها تتصور أن كل ما يخرج عن أطر فهمها، يجاوز حدود العقل!

ومن أمثلة ذلك، طريقة تلك العقول فى التعامل مع مواقف العبد الصالح مع موسى. فقد ظنوا أنها مواقف تتجاوز حدود العقل.. سواء من التيارات الروحية المؤمنة بالعلم اللدنى أو من التيارات العقلانية والتجريبية التقليدية الرافضة له!

ومن أسف أصر الجميع على أنه لا يوجد جسر بين «العقل»و «العرفان»!

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا السياق:

هل يمكن فهم مواقف العبد الصالح فى ضوء التسويغ العقلى وقواعد المنهج البرهاني؟

أزعم أن ما ورد فى سورة الكهف عن قضايا العبد الصالح وعلمه اللدني، يمكن فهمها فى ضوء التسويغ العقلي، فليس العلم اللدنى خارجا عن نطاق التسويغ العقلى ولا عن قواعد المنهج البرهاني.

وفى قراءتى لمواقف العبد الصالح مع موسى فى سورة الكهف، نجد أن موسى لم يدرك بعقله فى البداية «معقولية»تلك المواقف، وحسبها أمرا مستنكرا يجاوز حدود العقل، فقَالَ عن خرق السفينة: (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (الكهف: ٧١). وقَالَ عن قتل الغلام: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (الكهف: ٧٤). وقال عن إصلاح العبد الصالح للجدار الآيل للسقوط: (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) (الكهف: ٧٧)، خاصة أن أهل القرية كانوا بخلاء رفضوا إطعامهما بلا مقابل، والمعاملة عند موسى تكون بالمثل: (حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) (الكهف: ٧٧).

وهنا كانت الإجابة التفسيرية من العبد الصالح لتلك المواقف حتى يفهمها موسى فى حدود العقل المنطقى التعليلي.. بما يثبت أن العلم اللدنى ليس علما خارقا يتجاوز العقل والمعقولية ومنطق الأسباب. وفى تصوري، ومن واقع منطوق النص القرآني، أنه علم وقبس إلهى يدور فى نطاق العقل ويتمتع بالمعقولية ويدور مع منطق الأسباب بشكل واضح.. وشأنه شأن تناول العلوم لكثير من الوقائع، فإن الفرد العادى إذا نظر للواقعة (س)، فسوف يراها وفق منطق ظاهر الحواس، أما العالم فانه إذا تناول الواقعة (س) نفسها فسوف يراها من منظور أكثر عمقا لأنه يرى بعقله ظاهرها وباطنها.

إن كوبرنيكوس عندما اكتشف أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس لم يكتشف ذلك بالحواس ولا بالرؤية الظاهرة، بل اكتشفه بالمعادلات الرياضية التى لا تخلو من إلهام رياضي.

إن القرآن يوظف العقل التعليلى المحكوم بقواعد البداهة، ويستند إليه، ويستخدم براهينه فى التدليل على صحة قضاياه.. والعقل المتدبر للكتاب الحكيم يجد اتساق البراهين القرآنية مع الأقيسة المنطقية.

ومن هنا ذهب الكثيرون إلى وجود تشابه بين الاستدلالات القرآنية والاستدلالات العقلية المنطقية، حيث إن قضايا القرآن منسجمة مع أصول البرهان المنطقي، ويمكن التعبير عنها بأقيسة منطقية.

وهناك من العلماء فى العصر الحديث، من يقول بوجود تشابه بين المادة القرآنية بخاصة وبين الفلسفة العقلية فى انتهاج طريق البرهان. وعلى سبيل المثال فإن د. محمد عبد الله دراز فى رسالته للدكتوراه بالسربون تحت عنوان «دستور الأخلاق فى القرآن» يقول: «إن أفضل ما يدل على التشابه بين المادة القرآنية بخاصة، وبين الفلسفة- أن نلحظ أن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق، وعن الفضيلة، لا يكتفى دائما بأن يذكّر بهما العقل، ويثير أمرهما باستمرار أمام التفكر والتأمل، وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم، ويتولى تسويغه».

إن المحك هو المنهج، والمنهج كما يقول ديكارت: «هو تلك القواعد التى يُعَوّل عليها ويسهل تطبيقها، وأنه فى حال اتباع هذه القواعد بواسطة الفرد على نحو صحيح؛ فإن الفرد لن يقبل ما هو زائف على أنه صحيح، ولن يبدّد جهوده الذهنية، بل سينجح فى زيادة معارفه تدريجيًا وباستمرار حتى يصل إلى فهم صحيح لكل شيء فى نطاق قدرته.» (ديكارت، الكتابات الفلسفية).

إن المحك فى تحديد ما هو صواب وما هو زائف هو قواعد التدقيق العلمي، وليس الجدل والمراء، ولا النقل والتقليد، ولا بالأخذ بالظاهر والشائع.. إن المحك هو البحث طبقا للمنهج العلمى عن كل ما يدخل فى نطاق القدرة الإنسانية.

والسؤال الذى أشعر أن القارئ يسأله الآن: ماذا كانت إجابة العقل التعليلى على المعضلات التى أثارها موسى؟

موعدنا المقال القادم إن شاء العليم الحكيم...